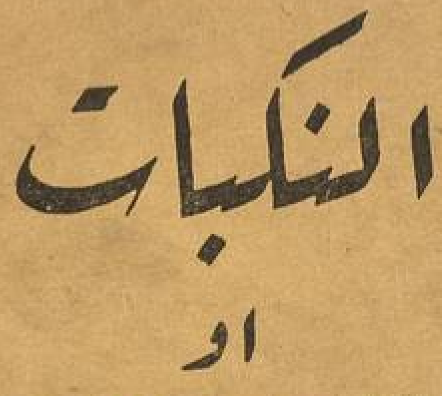


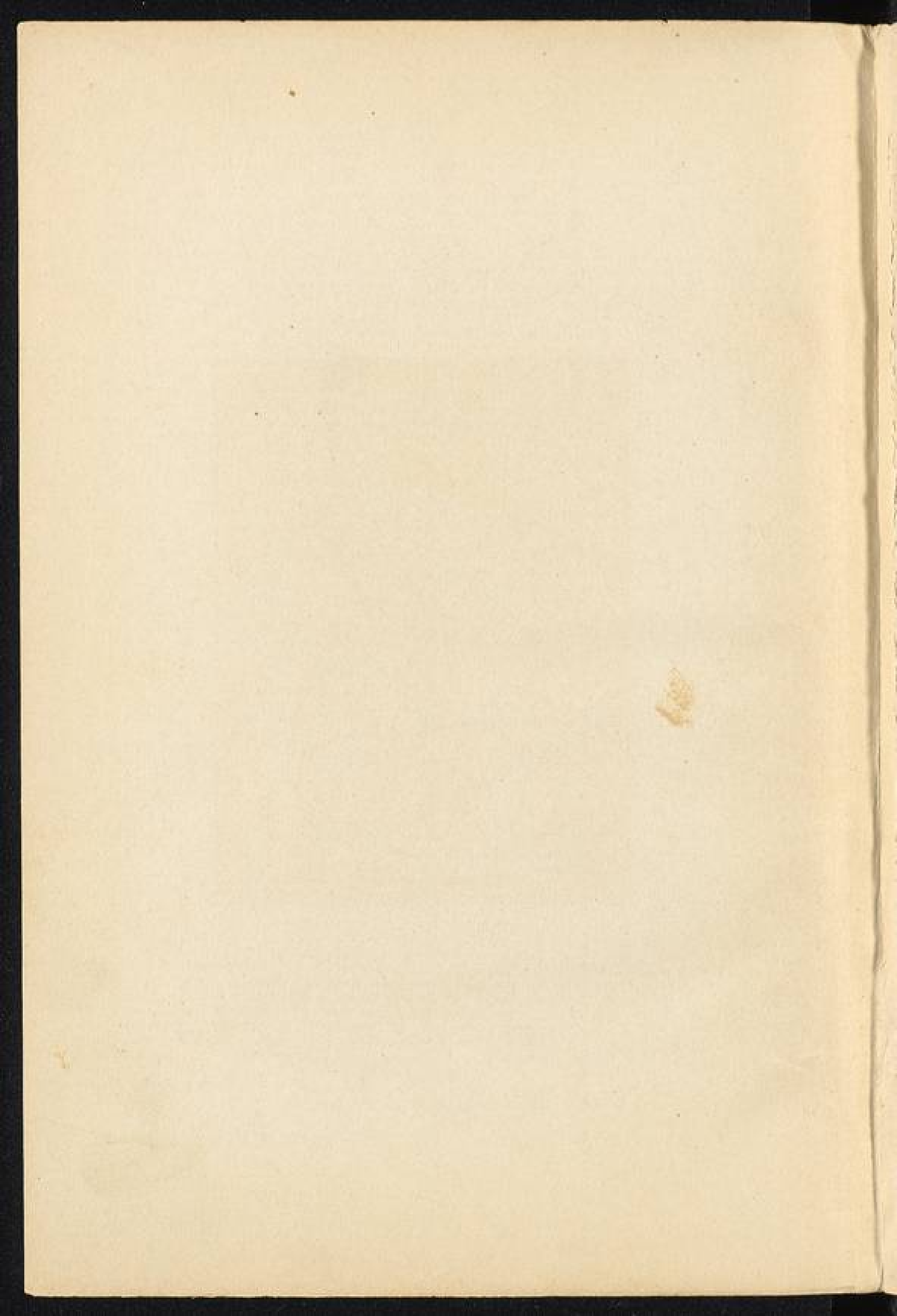
او

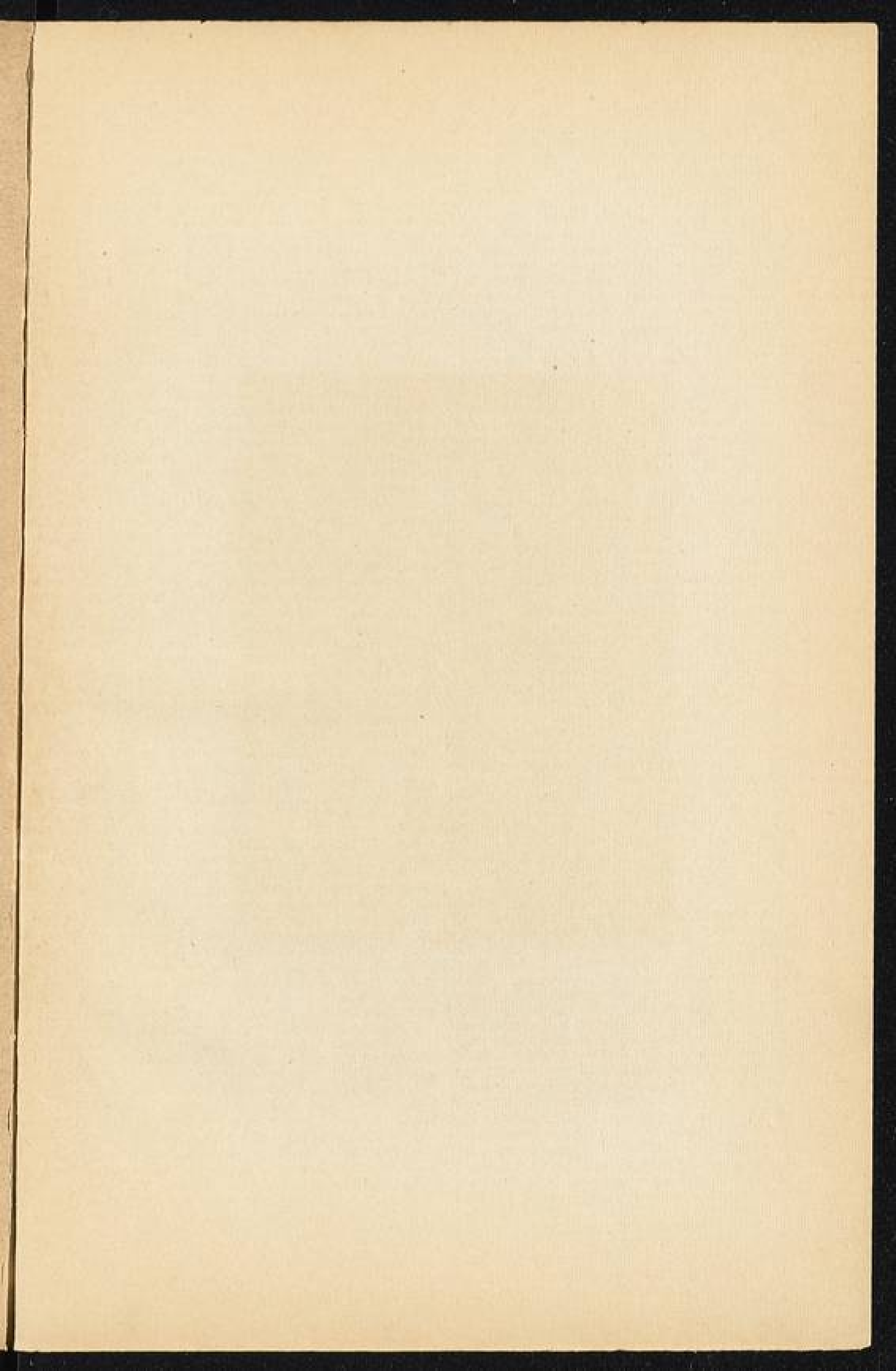
خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الاول بعد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان

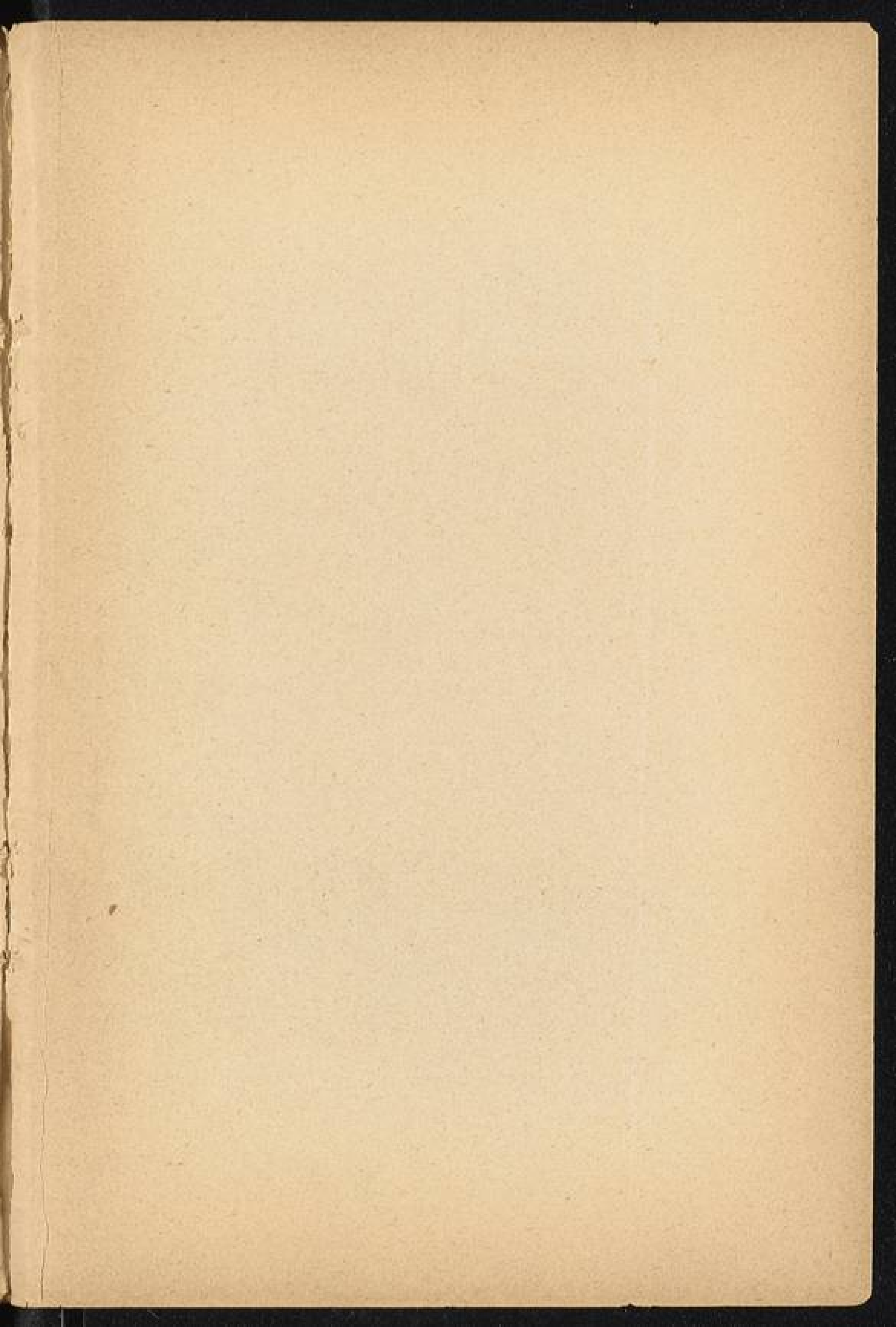
تأليف

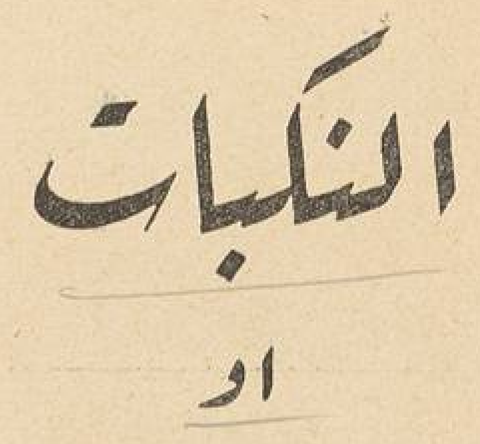
امين الريحاني

المطبعة العلمية ليوسف صادر · بيروت سنة ١٩٢٨









او

خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الاول بعد الطوفان
الى عهد الجمهورية بلبنان

تأليف

امين الريحاني

المطبعة العلمية ليوسف صادر · بيروت سنة ١٩٢٨

وقف المؤلف ريع هذا الكتاب على

* الكشاف المتحد *

« لو كان صحيحاً ان ما يمكن عمله الان قد عُمل في الماضي لما كان بقاؤنا على الارض لازماً ، ولكان في اطراد الحياة فيها من الاعباء التي لا تطاق ... وما فضل اولئك الذين يمجدون الماضي ويعتقدون ان اسلافهم بلغوا درجة الكمال ؟ وكيف يستطيعون ان يعيشوا أعزاء ، وجلّ همهم ان يتحصنوا في حصون التقاليد والعادات البالية ، وهم لا يشعرون بواجب في الحاضر ولا بأمل في المستقبل ؟ »

رابندراناث تاغور

***

« لا اريد ان أُمير المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بني آدم ! قالوا : ان اباءنا كانوا كذا وكذا . فعاشوا في خيال ما فعل اباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه اباؤهم من الرفعة لاينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة . وكلما اراد الشرقيون الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ »

جمال الدين الافغاني ،
نقله الامير شكيب ارسلان في كتاب :
حاضر العالم الاسلامي صفحة ٢٠٦

***

وقال احد شعراء العرب الاقدمين ينعي على التغلبيين قعودهم عن المكارم والمفاخر اكتفاءً بمعلقة شاعرهم عمرو بن كلثوم :

الهى بني تغلبٍ عن كل مكرمة　　قصيدة قالها عمرو بنُ كلثوم
يروونها ابداً مذ كان اولهم　　يا للرجال لشعرٍ غيرِ مسؤوم

* * *

« واحذروا ما نزل بالامم قبلكم من المُثُلات (العقوبات) لسوء افعالهم . فتذكروا في الخير وفي الشر احوالهم ، واحذروا ان تكونوا امثالهم »

نهج البلاغة

* * *

« لا تقسروا اولادكم على اخلاقكم ، فانهم مولودون لزمان غير زمانكم »

عمر بن الخطاب

* * *

« ليكن ابناؤنا خيراً منا جسماً ، وعقلاً ، ومجتمعاً ، واخلاقاً »

المعهد القومي للتربية الاخلاقية
في ولايات اميركة المتحدة

اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبالها وساحلها :

كثيراً ما نقرأ ونسمع ان تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الاجداد ، وبمفاخر الاجداد ·
فتعالوا نعيد النظر في اهمّ ما في التاريخ ،
تعالوا نزور الماضي الذي ألهانا عن كل مكرمة ·
تعالوا نزور الماضي فنقصر اذ ذاك من ذكر الاجداد ·

***

ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟
القوي منهم كان ظالمًا ، والضعيف كان مستعبَداً ·
اقرأُوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين من الاهواء ·
اقرأُوا التاريخ لتدركوا اللُّب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه ·
اقرأُوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي

***

انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين ٠

ولا تتكلوا على احد في الدنيا او في الآخرة ٠

ظُفر الميت خيال لا يفيد ، وظُفر الاجنبي من حديد ٠

اذن ، ما حك جلدك مثل ظُفرك ٠

اذن ، تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتحد في سبيل الوطن بل في سبيل الحياة ٠

تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد ٠

امين الريحاني

الفريكة ٠ لبنان ٠

في ٢٠ يناير سنة ١٩٢٨

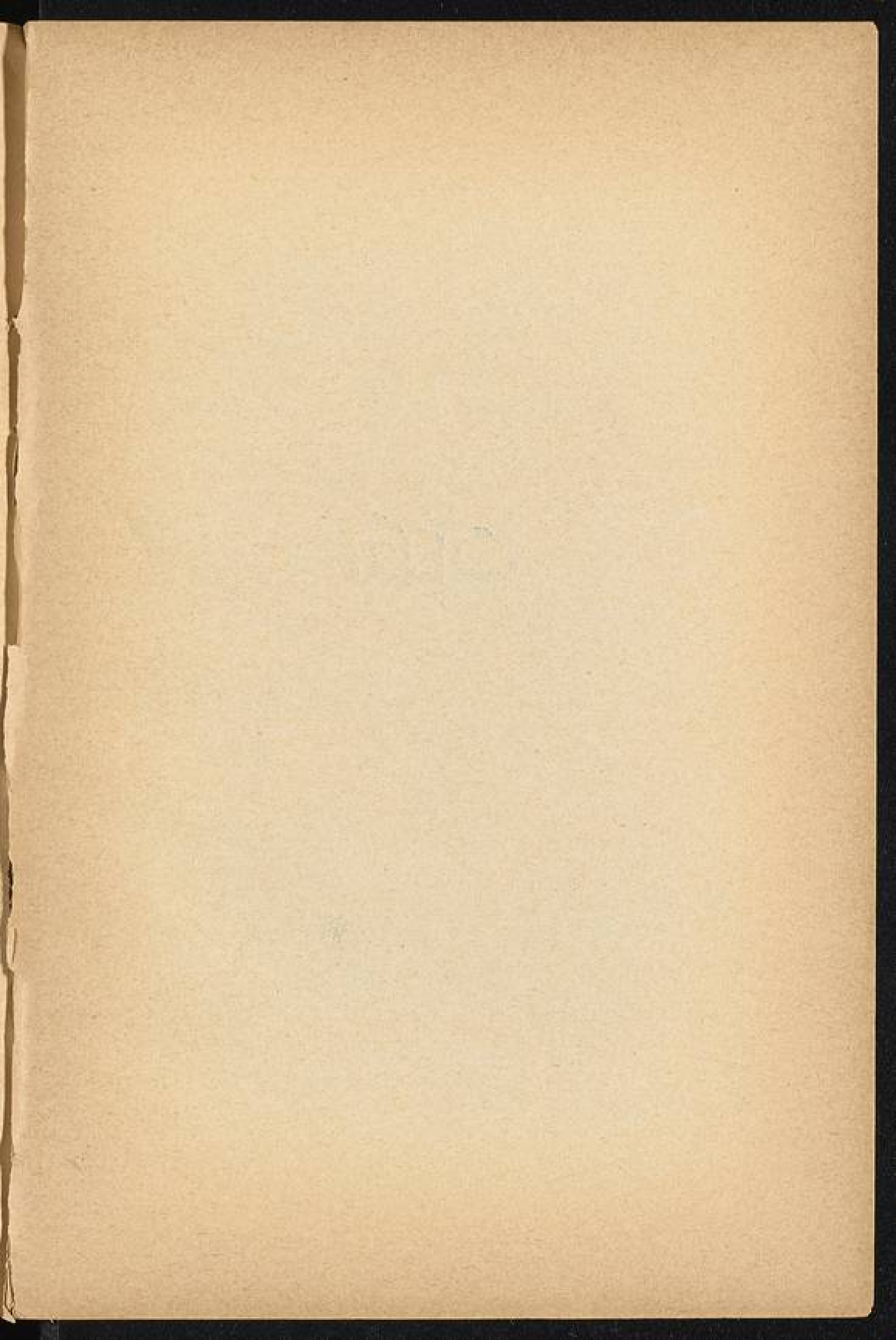
و٢٧ رجب سنة ١٣٤٦

الفهرس

صفحة

١ الفصل الاول سام وحام ويافث
٩ الفصل الثاني الاستيلاء المصري والاشوري
١٥ الفصل الثالث الاستعمار الفارسي
٢٠ الفصل الرابع الاحتلال السلوقي
٢٣ الفصل الخامس الاستقلال النبطي
٢٩ الفصل السادس بنو غسان والرومان
٣٤ الفصل السابع بابلُ العصبيات والاديان
٣٩ الفصل الثامن الدولة الاموية
٤٩ الفصل التاسع الدول الكلبية
٥٧ الفصل العاشر الصليبيون
٦٣ الفصل الحادي عشر هول هولاكو
٦٦ الفصل الثاني عشر دولة المماليك
٧١ الفصل الثالث عشر اهوال تيمورلنك
٧٥ الفصل الرابع عشر الى المزبلة ...
٧٧ الفصل الخامس عشر آل عثمان
٩٥ الفصل السادس عشر الدرك الاقصى

النكبات



الفصل الاول

سام وحام ويافث

انتِ سورية بلادي[1] . وهذا تاريخكِ في ستة مجلدات ضخمة[2] الفه صديقي الاستاذ محمد كرد علي وسماه خِطط الشام[3] والخطط جمع خَط وخِطة ، اي الارض التي تنزلها ولا ينزلها نازل قبلك ، فتخطها بعلامة تشير الى انك اخترتها للبناء وحظرتها

---

(١) من نشيد وطني نظمه فخري البارودي مطلعه :

انتِ سوريا بلادي   انت عنوان الفخامه
كل من يأتيك يوماً   طامعاً يلقى حمامه

(٢) اي ستة اجزاء . ولكني اعتمدت في سرد الحوادث وتمحيصها على الاجزاء الثلاثة الاولى وعلى تواريخ اخرى ستذكر في محلها .

(٣) اطلق العرب ، بعد الفتح الاسلامي ، اسم الشام على هذه البلاد . وللمؤرخين آراء فيه مختلفة ، منها انه من سام بن نوح — واسمه بالعبرانية شام — ومنها انه أطلق على هذه البلاد لبُقَع فيها حمراء وبيضاء وسوداء تشبيهاً لها بالشامات . وهذا التشبيه الشعري يذكرني بالتقسيم السياسي الاخير ، وبمناطق او بقع « سيكس — بيكو » الزرقاء والسمراء والحمراء ويكرهني « الشامات » . لذلك افضل الاسم الاول المخفف من آشورية ، او المنسوب الى صور ثغر سورية القديم .

على غير قومك من الناس . والخط الطريق الشارع ، وهذا اقرب الى الحقيقة في تاريخ سورية .

الطريق الشارع ، طريق الفاتحين .

ولكننا خططناها مرة واحدة بعلامات احترمتها الامم ، فكان ذلك الحُقب العربي المجيد ، وكانت تلك الدولة العربية ، العزيزة الجانب ، التي استمرت نحو تسعين سنة ، وبالتدقيق احدى وتسعين سنة وعشرة اشهر .

وما سوى ذلك ، فالخطط طرق شارعة تخضبت بدماء الامم . والخطط علامات تجمدت دموعاً على وجه الزمان . والشاهد على ذلك هذا التاريخ المنقطع النظير في تواريخ الامم . اجل ، ان هذا التاريخ ، الذي هو تاريخ الامم ، ليشهد في كل صفحة من صفحاته على ما اقول .

وهو تاريخ طويل ، مملّ ، مفجع ، لا يقدم على مطالعته غير القليل ممن يهمهم اخبار الاولين ، وفظائع الحكام الغابرين .

اني اذن ملخصه لك في هذه النبذة الواحدة التي يمكنك ان تقرأها في جلسة واحدة . ثم تنشد اذا شئت نشيد فخري البارودي ، او غيره من الاناشيد الوطنية الخيالية العديدة .

سابداً بالعلامات الاولى ، علامات الحدود ، وقد اعانتنا في خطها الطبيعة . اي بلادي ، ان الرمال والجبال والانهر والبحار تحيط بك ، فتتعاون في تعزيز حدودك . هوذا البحر المتوسط يمده البحر الاحمر عند العقبة . وهي ذي الجبال تقوم لحراستك في الشمال . وهناك الفرات وقد استل سيفه في الشرق . ثم البادية ، تلك الحليفة الصادقة المنيعة ، وقد شيدت في الجنوب حصونها .

على ان ذلك كله لم يغنك شيئاً . فقد كنت ، بلادي ، الطريق الشارع ، طريق الفاتحين ، ومحجة الامم . جاءوك صائلين بحراً وبراً ، ومن وراء الجبال ، ومن وراء الصحراء ، ومما دون الفرات ودجلة وبحر الروم . جاءك الاشوريون ، والمصريون ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والصليبيون .

وجاءك هولاكو عدو العمران ، وتيمورلنك عدو الانسان ، وابن عثمان كابوس الزمان .

ثم جاءك من الغرب فاتحٌ كرسكي وهو ينشد ضالة الاسكندر . وجاءك من مصر ابنُ الباني عظيم ينشد ضالة الكرسكي الاعظم بونابرت .

وجاءك مع الفاتحين ، وقبلهم ، وبعدهم ، طائفة من الآلهة

ورهط من الرسل والانبياء لو وزّع ثلثهم على العالم لبلبلوه ، وقد بلبلوا نصفه ، والعياذ بالله ·

لنعد الى تعريف الخطط · فالخَط والخِطة ارض تنزلها ولم ينزلها نازلٌ قبلك الخ ·

لا يصح هذا التعريف اذن في غير الشعوب التي سكنت هذه البلاد بعد الطوفان · ولكن المؤرخين مختلفون في ذلك · والارجح ان اقدم الشعوب في هذه البلاد هم الحثيون والعبرانيون والفينيقيون ·

اما الحثيون فكانوا يسكنون في الشمال او بالحري في الارض التي تمتد من جبال طوروس الى دمشق · وكان ملكهم مقسماً الى خمس دويلات ، اهمها اثنتان ، تلك التي كانت قرقميش (جرابلس) عاصمتها ، وتلك التي نشأت في دمشق وحولها ·

وكان الفينيقيون يقطنون السواحل من طرطوس الى صور ، والعبرانيون يسرحون ويمرحون في المنطقة الجنوبية التي تدعى فلسطين ·

وهناك من يقول ، والقول مثبوت في التوراة ، ان الهجرة الكنعانية هي الهجرة الاولى الى هذه البلاد ، التي كانت تدعى

بأرض كنعان احد ابناء حام. فالحاميون اذن هم اول من توطنوا هذه البلاد، بلاد كنعان، التي كانت تشمل لبنان وسورية وجميع ارض الحثيين حتى النهر الكبير، نهر الفرات.

وقد كان فيها عندما دخلها بنو اسرائيل، بعد خروجهم من مصر، واحد وثلاثون ملكاً (في التوراة — يشوع ١٢ : ٧ - ٢٤ — اسماؤهم واسماء ممالكهم كلها)

وجاء موسى الى ارض كنعان بآله اسمه يهوه، وكان الكنعانيون يعبدون إلهاً اسمه بعليم، فاحترب الآلهان وغلب اليهوه البعليم.

ثم أسس لرب الاسباط مملكة كبيرة في الجنوب، هي مملكة يهوذا التي شيدها شاوول (١٠٣٠ قبل المسيح) ووسع نطاقها داوود، وضفر لها سليمان اكاليل المجد.

وكانت مملكة بني حداد[1] قائمة في دمشق، وقد دفعت

---

(١) ذكروا في التوراة باسم بنهدد. ويقول الاستاذ موزيل في كتابه «البادية العربية» صفحة ٤٨٨ ان اسمهم حراد، وقد تكون الراء العبرانية قلبت دالاً، وانهم قبيلة من العرب الذين كانوا موالين لعرب القيدار.

الجزية ، بالرغم عن استقلالها ، للملك سليمان ·

وبعد موت سليمان (٩٣٣ ق·م·) انقسمت مملكة الجنوب الى مملكتين : يهوذا واسرائيل ·

وكانت عاصمة اسرائيل شكيم (نابلس) وكان بين اسرائيل ويهوذا من الحروب ما هو مدون في التوراة · اما ملوك دمشق فكانوا يشنون الغارات على اسرائيل في اثناء تلك الحروب ، وأبوا بعد موت سليمان ان يدفعوا الجزية الى اورشليم · بيد انهم على ما يظهر كانوا موالين للفينيقيين، وقد اشركوا مع ربهم « رمّان » في العبادة ، ربةَ فينيقية عشتروت ·

اما الفينيقيون فقد كانوا بعيدين اكثر من سواهم عن الحروب ومنصرفين كل الانصراف الى التجارة ·

هذي هي الدويلات التي كانت مؤسسة قبل الاستيلاء المصري واثناءه في سورية · وبعد انقراضها، كما سيجيء في الفصل الثاني، عمّ اسم آرام هذه الديار فاصبحت تسمى آراماً وسكانها آراميين ·

وآرام هو الابن الخامس لسام بن نوح · كان يسكن وبنيه بعد الطوفان في الجزيرة مابين النهرين ، قبل ان نزح الى هذه البلاد ·

هو اذن جدُّ العرب ، كما ان العرب اجداد الفينيقيين ، وقد جاءوا من البحرين ، على الخليج العجمي ، براً وبحراً الى شواطيء البحر المتوسط[١] .

كلهم اذن — الاراميون والعرب والفينيقيون والعبرانيون — ساميون ، الا الحثيين والكنعانيين ، فهم من نسل حام .

فهل انت وانا واخواننا القاطنون اليوم هذه الديار من سلالة الاراميين التي امتزجت فيها سلالات الحثي والكنعاني والفينيقي والعبراني ، اي الحامي والسامي[٢] ؟

ولكن المؤرخين يقولون ان في هذه البلاد شعوباً من سلالات ابناء نوح الثلاثة ، اي حام وسام ويافث[٣] . وقد

---

(١) راجع كتابي « ملوك العرب » الجزء الثاني صفحات ١٨٩ — ١٩٣

(٢) أخذ عيسو (السامي) نساءه من بنات كنعان (الحامي) عدا بنت ايلون الحثي وأهوليبامة بنت عنى الخ (تكوين ٣٦ : ٢) ولكن اسحق اوصى ابنه الاخر يعقوب بألاَّ يأخذ زوجةً من « بنات كنعان الشريرات » .

(٣) قيل ان الفلسطينيين من نسل يافث بن نوح جاءوا سورية من جزيرة كريت في عهد الفرعون رعمسيس الثالث ، فانزلهم في غزة وعسقلان وجوارهما ، فسميت تلك البلاد فلسطين .

يختلط في بعضهم الدم القفقاسي بالدم الافريقي والتركي والعربي ·

سام وحام ويافث ، رضي الله عن الثلاثة الاجداد ·

ومما لا ريب فيه ان في بلادنا ، او بالحري في شخصية اهل البلاد ودمهم ، ما لا يزال متوارثاً من آثار الشعوب الغابرة كلها — الكنعانية والاسرائيلية والمصرية والاشورية والحثية والفينيقية والآرامية والكلدانية والفارسية واليونانية والرومانية والتترية والعربية !

فهل يا ترى في العالم اجمع بلاد اخرى مثل هذه البلاد السورية ؟

بلادي موطن العصبيات انتِ ومدفن الوطنية ·

الفصل الثاني

الاستيلاء المصري والاشوري

قبل ان تأسست مملكة يهوذا بنحو ستمئة سنة ، اي في القرن السابع عشر قبل المسيح ، كانت البلاد السورية كلها تابعة لمصر [١] او بالحري كانت الدويلات الحثية والفينيقية والكنعانية ، حفظاً لاستقلالها النوعي ، تدفع الجزية وتقدم الجنود لحكومة فرعون ٠

---

(١) اول من غزا سورية في النصف الاول من القرن السابع عشر هو الفرعون طوطمس الاول الذي استولى على قسم من البلاد ٠ ثم هاجمها المصريون بقيادة رعمسيس الاول فوسعوا سيطرتهم عليها ٠ وبعد ذلك ، اي في عهد رعمسيس الثاني المزبور اسمه على صخرة عند مصب نهر الكلب ، شمل الاستيلاء المصري البلاد كلها (ان الاثار المصرية التي اكتشفت حديثاً في تل بيسان هي من هذا العهد) ثم اخذت تضعف سلطة الفراعنة لِما اعترى ملكهم من الفساد ولما حلّ به من دولة الرُعاة وغيرها من شرور التقسيم ، فقام عليهم الحثيون واخرجوهم من فينيقية وفلسطين ٠ الا انهم عادوا فاستولوا على القسم الاكبر من البلاد في عهد آموسيس مجدد النهضة لمنية ٠

يثبت ذلك ما اكتشف في تل العمرنة على شاطيء النيل سنة ١٨٨٧ للمسيح من الرسائل المكتوبة على قطع من الأجُر، المرسلة من ملوك سورية وفلسطين الى ملوك مصر · — اننا نقدم الخراج طائعين، وندعو لفرعون بالنصر المبين ·

وقد طالما تطورت السيادة المصرية في هذه البلاد، فكانت تضعف وتقوى، وتتضاءل وتتجسم، تبعاً لما يكون من حال الدولة السائدة، او من احوال الدول المسودة · ففي عهد رعمسيس الثاني مثلاً كان الملوك الحثيون والفينيقيون والكنعانيون والعبرانيون يدفعون الجزية ويقدمون الجنود صاغرين · وفي عهد سليمان الحكيم اضطر فرعون ان يصاهر سيد اورشليم وملك يهوذا، ليظلّ هذا موالياً له ·

بعد ذلك تضاءلت السيادة المصرية في هذه البلاد واستمرت كذلك الى ان جاء من وراء الفرات الفاتحون الآشوريون في القرن التاسع قبل المسيح [1] فتنازعوها والفراعنة، وتطاحنوا في

(١) اول من غزا سورية من ملوك آشور هو شلمناصر الثاني، وذلك في بداية النصف الثاني من القرن التاسع · واول من بسط سيادة آشور على قسم منها هو شلمناصر الثالث، ثم تغلات فلازر الرابع الذي

سبيلها التي لم تكن لاهل البلاد غير سبيل العبودية ·

وكان الفينيقيون اول من سلموا للاشوريين · ثم استعان الاسرائيليون بالفاتحين على اهل دمشق الذين كانوا يشنون عليهم الغارات ، فصاروا لقاء تلك المساعدة يدفعون الجزية لملك آشور ·

ثم اتحد ملك اسرائيل وملك دمشق (٧٣٣ ق · م ·) على آخر ملوك يهوذا ، فاستعان هذا بالاشوريين عليهما فاعانوه ، ووضعوا بعد ذلك على رقبته النير ، فامسى الملك اميراً يدفع الجزية الى سيد البلاد الاكبر تغلات فلازر ·

كذلك كان الفاتحون في ذلك الزمان ينصرون ملكاً على ملك واميراً على امير ، ليتم لهم النصر على الجميع · ليس في سياسة

استولى على البلاد كلها (٧٣٣ ق · م ·) ثم سرجون الذي تغلغل في البلاد العربية ، فوصل الى الجوف ، وأدّب قبائل العرب التي كانت تقطع الطرق على القوافل · ثم سنحاريب المزبور اسمه ورسمه على صخرة عند مصب نهر الكلب · وظل ملوك آشور مسيطرين على سورية جمعاء الى ان سقطت دولتهم نينوى بيد البابليين · فجاء اذ ذاك نبوخذ نصّر ملك بابل يفتح البلاد ، فقضى على ما تبقى فيها من السيادة المصرية (٥٩٧) وحمل على مملكة يهوذا فحطمها ، كما هو مدون في التوراة ، وجلا الى بابل عشرة الاف من اهل اورشليم ·

الفاتحين والمستعمرين شيء جديد ·

وفي العقد الاخير من القرن السابع (٦٠٧ ق ·م·) زحف الفرعون نخو غازياً سورية ليعيدها الى حوزة مصر فاستولى على القسم الجنوبي منها · ولكن نبوخذ نصر ملك بابل جاء بعد عشر سنوات يخرج المصريين من البلاد ، فالتقى عندما وصل الى قرقميش ، عاصمة الحثيين الاولى ، بملك مصر ، فالتحم الجيشان هناك (٥٩٧) وكانت الغلبة للبابليين ·

استمر بعد ذلك نبوخذ نصر في حملاته ، فاستولى على سورية وعلى مملكة يهوذا · وظلت السيادة البابلية عزيزة في البلاد ستين سنة ، اي منذ وقعة قرقميش الى حين سقوط بابل (٥٣٨) بيد الفرس · فيكون الاستيلاء الآشوري البابلي قد دام في سورية نحواً من ثلاثمئة سنة ·

اما العرب فلا ذكر لهم في تاريخ سورية قبل عهد الاشوريين [١]

---

(١) جاء في كتاب « البادية العربية » للمستشرق النمساوي المدقق الاستاذ الويز موزيل (Arabia Deserta, by Aloes Musil) المطبوع بنيويورك في سنة ١٩٢٧ على نفقة الجمعية الجغرافية الاميركية ان اول مرة ذُكر اسم العرب في تاريخ سورية هو في انباء شلمناصر

اقول هذا على احترامي للاستاذ كرد علي الذي يريد ان ينزلهم في بلاد الشام قبل كل نازل حتى قبل الكنعانيين · بيد ان المؤرخ رولنسون يقول انه كان للعرب في بلاد الكلدانيين ، مابين النهرين ،

الثالث الذي غزا سورية سنة ٨٥٤ قبل المسيح · وقد كان يومئذٍ للعرب مملكتان او إمارات على ما يظهر ، الواحدة لعرب القدار شرقي دمشق في نواحي تدمر (منازل عنزى اليوم) والاخرى لعرب النبط في الجوف بوادي سرحان ، اي في دومة الجندل ·

وقد حارب شلمناصر هندبة ملكة الانباط عندما جاءت بالف هجان تنجد ملك دمشق عليه (٧٣٨) وجاء في انباء تغلات فلاذر ذكر زبيبة ملكة العرب التي خلفت الملكة هندبة والتي قدمت لتغلات بعدئذٍ الجزية ·

وفي انباء سرجون عن حملته سنة ٧١٥ ذكرت اسماء اربع قبائل عربية تغلب عليها ، وجاء بالاسرى فانزلهم في السامرة · ثم حمل سنحاريب (٦٨٨) على تلخونه ، الملكة العربية ، ملكة الانباط ، فلم تستطع محاربته ، فتركت خيامها ولاذت بقصرٍ في دومة الجندل ·

وكان القُوَيطع ملك القدار قد عصى ملك آشور فحمل عليه اسرحدون فكسره وغنم امواله ، وسبى ربّ او صنم القبيلة المسمى « الطلسمين » · فعادت قدار الى الطاعة تقدم الجزية من ذهب وفضة ولبان وحجارة كريمة لملوك آشور ·

وجاء في انباء آشور بنو بال في حملته التاسعة على سورية ما يدل على ان القدار والانباط اتحدوا على الاشوريين ولم يقووا عليهم · فقد شتت جيش آشور اولئك العرب ، وساق اموالهم اي اغنامهم وجمالهم الى دمشق

ملك دام مئتين وخمساً واربعين سنة (١٥٤٣—١٢٩٨ ق ٠ م ٠) ولا يقول اكثر من ذلك ٠

وقيل ان دولة الرعاة في مصر (١٩٠٠ — ١٥٢٥ ق ٠ م ٠) كانت دولة عربية ٠ ولكنها لم تكن على شيء من الحضارة ٠ وقد كان عهدها الطويل فظيعاً في شطره الاول وعقيماً في اطواره كلها ٠ فلا عجب اذا كره المصريون الملوك الرعاة، وقام عليهم الفرعون آموسيس، مجدد النهضة الوطنية، فاخرجهم من البلاد (١٥٢٥) وزحف بعد ذلك الى سورية يؤدب السوريين لظنه ان الرعاة منهم، فكان فاتحاً مظفراً ٠

ومن المؤرخين من يقول ان الملوك الرعاة سوريون ٠ ولا فخر ٠ فقد اقاموا في مصر نحواً من اربعمئة سنة وهم يأكلون من طيباتها، ويفسدون، ويخربون، وما اكلت سورية بسببهم غير النبوت وخبز العبودية ٠

وسبى أمّ القويطع واخته وامرأته، وسبى كذلك اصنام القبيلتين فاذلّ العرب، فامسوا بلا معين ٠

كل هذه الاخبار منقولة عن الانصاب التي عثر الاثريون عليها في بابل، والتي قرأها وحل رموزها الاثريون رولنسون وونكلار ودلتش وغيرهم (Rawlinson, Winckler, Delitzsch) من كتاب « البادية العربية » صفحات ٤٧٧ — ٤٩٢

الفصل الثالث

الاستعمار الفارسي

كانت الدولة الحثية الشمالية اكبر الدويلات السورية اقتداراً ، واشدها بطشاً ، فغلبت حتى المصريين مرة واخرجتهم من فينيقية ومن ارض كنعان الجنوبية ٠

ثم تحطمت الدويلات الحثية كلها تحت سنابك خيل الفاتحين من الشرق ومن الغرب ، اذ احترب المصريون والاشوريون في قلب البلاد — وعليها — كما اسلفت القول ، وعمّ فيها الويل والبلاء ٠

وما خف البلاء والويل في زوال الاستيلاء الاشوري البابلي ٠ فعندما خلع قورش ملك الفرس نير البابليين ، واسس الدولة الاشمونية الفارسية الآرية ، التي قامت على انقاض الدولة الآشورية ، شرع يبسط سيادته على البلدان التي كانت في حوزة ملوك بابل ونينوى ، فتم في عهده وعهد ابنه قمبيسس الاستيلاء الفارسي الآري على البلاد السورية كلها ، سهلها وجبلها وساحلها ،

وتجاوزها الى الجزر كقبرص وغيرها ، بل الى بلاد الاغريق ومصر وافريقية ·

كان حكم الفرس في هذه البلاد ، بل في كل البلدان التي فتحوها ، حكمًا استعمارياً عسكرياً ، ولم يكن للوطنيين يد فيه البتة · فكان الملك يعين حاكماً من رجاله او من آل بيته ، ويمده بجيش من اهل مادي وفارس لحفظ النظام والامن والطاعة ·

اما اهل سورية فلم يجند الفرس منهم الا للغزوات والفتوحات في البلدان الاخرى ، كما كان الاتراك مثلاً يجندون السوريين لمحاربة اهل اليمن وعسير ·

وكان لدولة الفرس اسطول عظيم يربو عدد مراكبه على الالف ، كلها من صنع اهل فينيقية وقبرص واليونان · اما رجال الاسطول وجنوده فمن اهل مادي وفارس · ولا غرو · فكيف تثق الدولة بالاهالي وحكمها فيهم حكم المستعمر المستأثر المستبد ؟ حكمْ طاغيةٍ يقول : ادفعوا الضرائب وقدموا الجنود طائعين صاغرين ، والا فهذه كتائبي عندكم تعلمكم الطاعة او تبيدكم ·

استمر هذا الحكم الفارسي العسكري الاستعماري في البلاد السورية مئتين وثماني وعشرين سنة (٥٥٨ — ٣٣٠ ق · م ·)

وبينما كانت الثورات تضطرم في البلدان الاخرى لخلع نير الاجنبي ؛ فتحررت اليونان سنة ٤٤٩ وتحررت مصر سنة ٤٠٥ ، لم يحدث في سورية غير ثورة واحدة صغيرة غير ظافرة . وذلك في الجهة الفينيقية ، وفي شرقي الاردن الذي كان يقطنه الادوميون .

لم تكن سورية لملوك الفرس سوى طريق الى مصر وافريقية وبلاد الاغريق . والطريق التي يسلكها الفاتحون يجب ان تكون آمنة ويجب ان يكون فيها ما يكفي لتموين الجيوش . اما الامن فقد اوجده ملوك الفرس كما قلت بما كان لهم من الحاميات الفارسية في البلاد . واما التموين فأمره موكل بالخراج ، والخراج ينمو نماءً عجيباً في ظل الرماح . — هاتوا الاموال ، وهاتوا الارزاق ، وهاتوا رجالكم للحروب !

مئتان وثمانٍ وعشرون سنة من هذا الاستعمار الشرقي ! وبعد ذلك ؟ ان مصرع الباغي وخيم وإن تاخر مئتي سنة . فقد ارسل الله الاسكندر ، اسكندر بن فيليبوس المقدوني ، ليؤدب الدولة الفارسية الاشمونية التي كان يسوسها في آخر عهدها النساء والعبيد والخصيان .

وكان دارا الثالث اخر ملوك الاشمونيين قد همَّ باسترجاع

بعض البلدان التي خسرها اسلافه السفهاء ، فزحف بجيشه الى سورية وقد اعتزم ان يغزو بلاد الاغريق ·

ولكن الاسكندر كان قد عبر البحر الى آسية (٣٣٤ق·م·) ومعه خمسة وثلاثون الف مقاتل ، فالتقى بقسم من الجيش الفارسي في الاناضول وكانت هناك وقعة «الغرانيق» التي كتب له فيها النصر الاسيوي الاول ·

واستمر الفاتح الشاب زاحفا على سورية ، فوصل الى خليج الاسكندرونة ، حيث كان الملك دارا وهو متأهب للحرب ، فالتحم الجيشان في وقعة إيسوس (٣٣٣) شمالي الخليج ، وكانت الغلبة فيها للمقدونيين ·

تقهقر الملك دارا بما تبقى من جنوده الى الشرق واستمر الاسكندر زاحفا الى الجنوب ، فوقع الرعب ، بعد وقعة إيسوس ، في قلوب الفينيقيين والسوريين ، فدان اكثرهم له طائعين · «ولما وصل الى جبيل تلقاه اهلها بالبشر والحفاوة» ·

اما صور فأبت التسليم ، ودافع اهلها دفاع المستبسلين في حصار دام سبعة اشهر ثم سلموا · وكان قد ارسل الاسكندر احد قواده الى دمشق فاحتلها بجنوده ، واستحوذ على خزائن دارا

وما كان في المدينة لاعيان الفرس من المتاع والاموال.

وفي مدة لا تتجاوز العشرين شهرا اخرج الفاتح المقدوني الفرس من البلاد السورية كلها، كما اخرج الاحلاف الترك في هذا الزمان...

اجنبي ينقذنا من اجنبي على الدوام!

الفصل الرابع

الاحتلال السلوقي

بعد وفاة الاسكندر في بابل (٣٢٣ ق٠م٠) اقتسم قواده مملكته الشاسعة فكانت سورية الشمالية وما دونها شرقاً الى حدود الهند حصة سلوقس نيكاتور اي الفاتح ، واستولى بطليموس على مصر وعلى فلسطين وما يليها شرقاً وشمالاً ٠

كانت بابل في البدء عاصمة الدولة السلوقية ، فنقلها سلوقس بعد عشر سنوات الى انطاكية ليتمكن من محاربة اعدائه في الغرب ٠

تأسست هذه الدولة سنة ٣١٢ قبل المسيح وبلغت ذروة المجد في عهد انطيوخس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٣) الذي حكم خمساً وثلاثين سنة ، وبسط سيادته على البلاد السورية كلها ماعدا البتراء وما يجاورها التي كانت يومئذ في حوزة الانباط ٠ وقد اغضب انطيوخس الكبير الرومانيين بسياسته وحروبه فحملهم على التدخل في امور الشرق ، فجرّ ذلك في ما بعد الى الفتوحات

الرومانية التي قضت على الدولة السلوقية ·

بيد ان هذه الدولة ظلت قائمة على اركان متزعزعة اكثر من مئة سنة بعد انطيوخس الكبير · وقد كانت خصوصا في هذه الحال واجمالا في كل احوالها مثل الدول التي تقدمتها ظلما واستبدادا ·

الا انها لم تكن محض استعمارية او صرف يونانية · فقد قسم السلاقسة البلاد الى مقاطعات يحكمها حكام يعينهم الملك · وكانت الوظائف الصغيرة بيد اناس من الوطنيين ، وكان الجيش المرابط من اهل البلاد الا ان ضباطه يونانيون ·

قال المؤرخ : « كانت دولة السلاقسة دولة حرب ونزاع ، فغدت الشام في حالة بؤس ونحس ، رومة تطالبها ببسط سلطانها عليها ، ومصر تحاربها لتضمها اليها ، واهل فارس يجتاحونها ، فمنيت البلاد بضعف الحال ، وقلة الرجال » ·

وقد تفككت تلك الدولة في آخر عهدها لما قام فيها من الحروب الاهلية بين الاخوان وابناء العم الطامعين كلهم بالملك · فخرجت صور وصيدا وغيرهما من مدن الساحل على انطاكية ، واعلنت استقلالها ·

ورفع اهل الشام اصواتهم شاكين محتجين · ثم استنجدوا ،

وقد ضاق ذرعهم ، باجنبي على اجنبي . أَجل ، قد استغاث الدمشقيون بتغران ملك ارمينية ، فأَغاثهم وانقذهم من السلاقسة (٨٣ ق٠م٠) وحكم الشام بعد ذلك ثماني عشرة سنة كانت اللاحقة للسابقة عيناً — سبحان الله ! لقد انسانا الارمني ظلم السلوقي !

ثم جاء الرومان سنة ٦٩ يؤدبون الارمني تغران لتدخله في حرب من حروبهم في الشرق، فأَخرجوه من دمشق كما اخرج الفرنسيس فيصلاً في هذا الزمان .

وبعد اربع سنوات من خروج تغران جاء القائد الروماني بومبيوس (٦٥ ق٠م٠) فازال ما تبقى من سيادة السلاقسة، وحول ملكهم السوري الى ولاية رومانية ...

من اجنبي الى اجنبي على الدوام .

الفصل الخامس

الاستقلال النبطي

واين كان العرب في كل هذه الازمنة، ازمنة الاستعمار الفارسي واليوناني؟

يقول المؤرخون ان الادوميين من العرب ، وانهم كانوا يقطنون البلاد التي تسمى اليوم بالشرق العربي . اما الانباط فقد جاؤوا من دومة الجندل[١] في القرن الرابع قبل المسيح (٣١٢) فغزوا ارض الادوميين واخرجوهم منها . ثم اسسوا هناك ملكا جديداً دام نحواً من ثلاثمئة سنة . فكانوا اذن معاصرين للسلاقسة وللرومان في اول عهدهم في بلاد الشام .

ومن هم الانباط؟ يقول العرب انهم سوريون، وكان الرومان واليونان يقولون انهم عرب . اما انهم ساميون ومن نسل اسماعيل فما تشهد عليه التوراة (تكوين ٢٨ : ٩) — « فذهب عيسو الى اسمعيل واخذ محلة بنت اسمعيل بن ابراهيم اخت نبايوت (جد

(١) راجع الشرح في صفحة ١٧

الانباط) » .

ولكننا لا نعود بالقارئ الى ذاك الزمن الاقدم وعندنا ما هو واضح وموءكد في الزمن القريب من العهد المسيحي ، اي في عهد المكابيين والسلاقسة اليونان .

جاء ذكر الانباط لاول مرة في سفر المكابيين ، وقد غزا احد الملوك السلاقسة سنة ١٣٢ ق . م . المملكة النبطية وعاد خاسراً . ففي هذين التاريخين ما يدل على ان الانباط احتلوا البلاد التي هي عبر الاردن في بداية القرن الرابع قبل المسيح ، وان مملكتهم ، بعد مئة وسبعين سنة ، كانت عزيزة الجانب فلم يتمكن السلاقسة من الاستيلاء عليها .

وكانت تمتد هذه المملكة بين فلسطين وخليج العقبة ووادي الحجر وبحر الروم . اما عاصمتها فالبتراء ، وتدعى ايضا سلع ، بوادي موسى .

قال مومسون : ان البدو واليهود والنبطيين كانوا على عهد بمبيوس الروماني اصحاب السلطان في الشام .

والظاهر ان ملك البتراء الحارث الثالث دخل دمشق سنة ٨٥ قبل المسيح قبل ان يستنجد اهلها بالملك الارمني تغران

بستئين . قد يكون جاءهم الحارث فزعاً، او ليصلح بينهم وبين السلاقسة، لانه كان مشهوراً بحبه لليونان، فلم يفلح على ما يظهر في مسعاه السلمي او الحربي ، فاستنجد الدمشقيون بعدئذٍ بتغران .

ولكن الانباط عادوا الى دمشق في عهد الحارث الرابع، اي بعد استيلاء الرومانيين عليها ، وظلوا اصحاب السيادة الوطنية فيها اكثر من مئة سنة . هي سيادة وطنية مقيدة بسياسة رومة الخارجية .

جاء في الانجيل (رسالة بولس الثانية الى اهل كورنتيوس ١١ : ٣٢): « في دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه » .

مما يدل على ان ملوك الانباط لم يسرعوا الى التنصر، ولا غيروا عاصمتهم البتراء . فعندما استولوا على دمشق عمَّلوا عليها احد رجالهم .

ومما اجمع عليه المؤرخون انهم كانوا يدارون الرومان ويحالفونهم، فيقدمون لرومة الجنود، لقاء تلك السيادة ، ويدفعون

شيئاً من الخراج ·

قال المؤرخ : « ان بمبيوس لما فتح الشام واستولى على دمشق وما جاورها ابقى لدمشق استقلالها ، وكذلك لبصرى وجرش وعمان » ·

— نولي عليكم واحداً منكم على شريطة ان تعترفوا بسيادتنا فتدفعوا الخراج وتقدموا عند اللزوم الجنود ·

هو الحكم اللامركزي — الحكم الروماني العربي او بالحري النبطي — الذي دام اكثر من مئة سنة في حال من الخلل والفساد تغاضت عنه رومة لانها كانت في مثلها ، بل في حال اشد منها ·

لكن الامبراطور تراجان (٩٨—١١٧ م ·) لم يرض بتلك الاحوال المخجلة · فنهض لاصلاحها ولسان حاله يقول : لننسحب من البلاد السورية او لنحكمها حكماً رومانياً · ومن هم الانباط لنقيم منهم ملوكاً ؟ ومن هم السوريون ليكون لهم من الامتيازات اكثر مما لسواهم من الشعوب والامم الخاضعة لسلطان رومة ؟

ضرب تراجان على ايدي المفسدين في العاصمة ، وجدد في الامة روح الاستعمار ، فاعاد الى الدولة الرومانية شيئاً من العز والقوة · وقد جرد على سورية جيشاً كان مظفراً ، فأبطل

امتيازاتها ، وادخلها في صف المستعمرات · ثم حمل على الانباط فبدد شملهم وقضى على دولتهم (١٠٦م·) فصارت البتراء وما يليها مستعمرة رومانية ·

وكانت دولة تدمر — النبطية ايضاً — قد دخلت في حوزة الرومانيين سنة ٣٦ قبل المسيح، واستمرت طائعة تؤدي الخراج وتقدم الجنود لرومة نحواً من مئتي سنة ·

وكان قد نزح من شرقي الاردن وبلاد الشام الانباط النافرون من الرومان، الناقمون عليهم بعد استيلائهم الاستيلاء التام على بلادهم، فشرعوا يدسون الدسائس في تدمر ليخرجوا اخوانهم هناك من ربقة الاجانب ·

فقام أُذينه السميذعي يدعي الملك (٢٥٠م·) فحارب الرومان وحاصرهم في مدينة حمص، فسلموا له · ولكنه توفي بعيد ذلك · ثم قامت زينب — الزباء — ارملته تعلن استقلال بلادها، وتخرج الرومان منها · فجرد الامبراطور ديميتيوس اوريليوس حملة عليها، وتولى قيادتها بنفسه · وكانت زينب تقود جيشها، فتلاحم الجيشان في جوار حمص، فانكسر جيش الانباط وتقهقر الى تدمر، فحاصر اوريليوس المدينة (٢٧٣م) فسلمت، ووقعت الملكة العربية

اسيرة بيد الامبراطور الروماني · ثم حل بتدمر ما حلّ بالبتراء قبلها ·

وكان بنو السميذع القاطنون بادية الشام في اوائل النصرانية ، الا قليلا منهم ، انصارَ أُذينه وزوجه الزبّاء ، يمالئون الرومان ، ويساعدون في تحقيق مقاصدهم الاستعمارية · بل كان الكثيرون من العرب يحاربون في صفوف الاجانب لمال او لوظيفة اولحزازات في الصدور · · ·

سأَخنقكِ لا بيدي بل بيد ابنائكِ ·

انتِ سورية بلادي · واليد التي على عنقك اليوم هي يد ابنائك — «الابرار» — لا يد الاجانب ·

الفصل السادس

بنو غسان والرومان

كانت العصبيات متأصلة في هذه البلاد السورية عندما استولى عليها ملوك اشور. وقد استخدموها غير مرة لاغراضهم كما فعلوا عندما استنجدهم الاسرائيليون على ملوك دمشق، وعندما استعان بهم ملك يهوذا على خصميه ملكي دمشق واسرائيل.

وكانت تلك العصبيات جنسية ودينية معاً، فتعصب الفينيقي لآدونيس، والاسرائيلي ليهوه، والدمشقي لرمّان، والكنعاني للبعليم. ثم جاءهم الفرس بآهورا وازدرشت، والسلوقيون اليونان ببرلمان من الاصنام، والانباط بارباب من الخشب والصوان، ولسان حال الحكيم في ذلك الزمان يقول:

كلٌّ يعظم دينه — ياليت شعري ما الصحيح؟

ثم جاء من يجاوب ذاك الحكيم جوابا فلسفياً لاهوتياً. جاء بولس العبراني، احد تلاميذ يسوع الناصري، الذي ظهر في الجليل، يقول: انما الدين الصحيح هو هذا الذي على لساني وفي

قلبي، ولا دين صحيح سواه ... كان في البدء الكلمة، وكانت الكلمة ...الخ

اغاظ الرسول بولس الانباط والاراميين بدمشق، فحاول عامل الحارث ملك البتراء ان يقبض عليه (كورنتيوس ١١: ٣٢) فتدلى من الشباك وفر هارباً. لم يتنصر الانباط في باديء الامر لانهم كما ظهر كانوا موالين يومئذ للرومانيين.

ثم جاء من البلاد العربية، من اقاصي الجنوب في شبه الجزيرة، قوم من عرب الازد، حكم عليهم بالهجرة سيلُ العرم، فنزلوا في بلاد الشام «وانضافوا الى ملوك الروم[1]» كما يقول المسعودي «فملكوهم، بعد ان دخلوا في دين النصرانية، على من حوى الشام من العرب». واول هؤلاء المتملكين عرب تنوخ، واول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك.

«ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام». وبعد ذلك جاءت غسان[2]

---

(١) قد اطلق العرب اسم الروم على الرومان وعلى من حكموا في القسطنطينية.

(٢) قال ابو الفداء ان قوماً من اليمن من بني أزد (الذين يمتون

فكانت المتفوقة المتغلبة على سليح وتوخ · والغساسنة موصوفون بالمروءة والذكاء، والدهاء والاقدام · ولا غرو، فالنكبات تفل من الشكائم، وتعلم الهوادة في سبيل السيادة، والتساهل في سبيل العيش ·

تنصر بنو غسان فملكهم الروم على العرب، وكان اول ملوكهم جفنة بن عمرو، واشهرهم الحارث، وكانت منازلهم بالشام · اما جميع ملوك جفنة من آل غسان فاثنان وثلاثون ملكا لبثوا في ملكهم نحو ثلاثمئة وخمسين سنة ·

بعد ان اباد الرومانيون دولة الانباط شدوا النير على اهالي هذه البلاد، فاضطروا ان يقيموا الحاميات الكبيرة في المدن ليعززوا سيادتهم فيظل الاستعمار وطيد الاركان · ولكنهم كانوا يحتاجون الى الجنود للحروب والفتوحات في اوروبة وافريقية، وقد رأوا ما يراه ساسة اليوم الاستعماريون، وهو ان شراء السيادة بالمال او بالالقاب ابخس جداً من نيلها وتعزيزها بالسلاح · لذلك

الى كهلان بن سبا) تفرقوا من اليمن بسيل العرم، ونزلوا على ماء في الشام يقال له غسان فنسبوا اليه · وغسان هذه قرية من قرى حوران الى الجنوب الشرقي من دمشق ·

بدلوا الاستعمار بنوع من الانتداب، او انهم عادوا الى خطتهم السابقة لعهد الامبراطور تراجان.

وكان امراء العرب من تنوخ وسليح وغسان — خصوصاً غسان — قد تنصروا، ولنا ان نقول «ترَوْمَنوا» اي اقتبسوا بعض عادات الرومان، وتخلقوا ببعض اخلاقهم، كما يتفرنج بعض الناس في هذا الزمان. وقد سر ذلك الرومانيين، فقربوا منهم كبار الغساسنة وامّروهم على بلاد الشام.

وكذلك فعل ملوك فارس بالعرب الذين نزحوا من اليمن الى العراق فنزلوا مكانا هناك سموه الحيره، التي صارت بعدئذ مقام الملوك اللخميين اي المناذرة من آل النعمان بن المنذر. وكان المناذرة العرب بيد الاعاجم الفرس مثل الغساسنة العرب بيد الاعاجم الرومان. وكان الفرس اعداء الرومان فصار اللخميون اعداء الغساسنة؟

اجل، قد اقام الرومان ملوكاً من غسان ليمكنوا السيادة الرومانية في البلاد، وليقاوموا بهم اعداء رومة وبيزنطية. بل اقاموهم ملوكاً ليردوا عن سورية اغارات اللخميين، وغزوات الفرس فاحترب الاخوان الغساني واللخمي من اجل الاجنبي ابن رومة.

وكان الواحد تحت الانتداب الفارسي ، والاخر تحت الانتداب الروماني .

اجل ، قد كان الرومان والفرس يصطنعون ملوكا من اولئك العرب اجدادنا كما تصطنع دول الفرنج ملوك هذا الزمان .

انت سوريه بلادي ،

انت عنوان الفخامة !

الفصل السابع

بابل العصبيات والاديان

حكم اليونان في هذه البلاد مئتين وتسعة وستين سنة، فانتشرت الثقافة اليونانية في الطبقات الراقية من الامة ، وحلت الاساطير اليونانية محل الاساطير الآشورية والفينيقية. او انها اقتبست بعضها، فصارت عشتروت مثلا أفروديت ودخل البعل في برلمان الاصنام.

اما لغة الاهالي فظلت كما كانت آرامية منذ بداية الدولة السلوقية وقبلها. الاّ ان الطبقات العالية واولياء الامر والطامعين بالوظائف كانوا يحسنون ايضاً لغة الفاتحين.

وجاء بعد اليونان الرومان، فحكموا في سورية سبعة قرون كاملة. وقد كان العهد الاول، اي منذ فتح الشام (٦٥ ق.م.) الى حين سقوط الدولة النبطية (١٠٦ م) عهداً شبيهاً بالانتداب او بالحكم اللامركزي. وكان العهد الثاني، اي من ايام تراجان الى ايام قسطنطين ، عهداً استعمارياً استبدادياً . فاشتد النير الروماني

على البلاد، وكان الناس فوق ذلك يعيشون في خوف دائم من الاضطهادات الدينية التي كانت تبدأ في رومة او في القسطنطينية وتمتد بويلاتها الى الولايات والمستعمرات الرومانية كلها.

اما العهد الثالث، اي من ولاية قسطنطين الى ولاية هرقل، فقد عم فيه الفساد الديني والمدني، وصارت القسطنطينية قطب المناقشات اللاهوتية التي افسدت على الناس عيشهم، وبلبلت عقائدهم، وبدّلت حرية الضمير بالطاعة العمياء للبطاركة والاساقفة الذين اصبحوا في نعيم من الدنيا يرفلون بالارجوان، ويبارون بالترف والابهة اصحاب الصولجان.

وكان ملوك الفرس الساسانيون لا يزالون يتطلعون الى هذه البلاد، بل الى ملكهم القديم، ويطمعون باسترجاعه، فاغتنم كسرى انوشروان فرصة سنحت من جراء الفساد الذي عرا الدولة البيزنطية المسيحية، وزحف الى سورية في طليعة القرن السابع (٦١١ م.) فاحتل قسماً منها. ثم استعادها الامبراطور هرقل، ولكنها لم تدم منذ ذاك الحين غير بضع سنين في حوزة الرومان، اذ كان قد ظهر في الحجاز نبيٌّ عربي يحمل كلمة في التوحيد الالهي آمن بها الناس وحملوا السيف في سبيلها.

وراح اولئك العرب بكتابهم الشريف، وبسيفهم البتار، يدوّخون الممالك، ويهدّون الملوك اويهدُون عروشهم ·

جاء عرب التوحيد من الحجاز يوم كانت الدولة الرومانية لا تزال مشغولة بالمناقشات اللاهوتية، بالثالوث و بالمشيئة الواحدة والمشيئتين ، وهم يكبرون ويهللون — الله اكبر ! لا اله الا الله ! جاءوا باسم الله الواحد فاتحين ، وهم يحملون الكتاب والرمح ، ووصايا ابي بكر العشر في القتال ·

—لا تغدر · لا تمثّل · لا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً · لاتعقرن شاةً ولا بعيراً الا ما اكلتم · لا تحرقن نخلاً · لاتخربن عامراً · لا تغلُ (الغلول الخيانة في المغنم) · لاتجبن ·

ان مثل هذه الوصايا لجميل في كل زمان ومكان اذا عمل به · ولا شك ان العرب كانوا ارحم ممن سبقهم من الفاتحين واعدل بالناس · ولا شك ان العصبيات، التي تحول دائمًا دون العدل والرحمة، كانت في تلك الايام اشد مما هي اليوم، فلم يتغلب الاسلام عليها كلها ·

مما هو جدير بالذكر ان عسكر هرقل الذي حارب وانكسر في وقعة اليرموك في السنة الثانية عشرة للهجرة (٦٣٤ م·) كان

فيه الوف من العرب — من لخم وجذام وقضاعة وغسان ومرة وتنوخ — ومن الارمن ايضاً !

سبحان المغير ولا يتغير . فها نحن في القرن العشرين وقد حارب الفرنج العرب ببعض العرب وبالاجانب من غير اوروبة — بالارمن والشركس وعبيد السنغال في سورية ، وبالهنود في العراق — حاربوا العرب المسلمين بجنود مسلمين من امم اسلامية تحمل باطلاً اسم الاسلام .

وكان الفضل الاكبر في ذلك الفتح العربي الاسلامي ان استعربت الشعوب السورية وصارت العربية لسان اهل البلاد .

انه لأسهل على الشعوب ان يغيروا لسانهم من ان يغيروا تقاليدهم واخلاقهم . فقد تعاقبت على هذه البلاد اللغات الفينيقية والحثية والعبرانية والسريانية والارامية واليونانية واللاتينية . ثم جاءت العربية تحل محلها كلها .

وكان الفضل في نشر العربية فى البلاد السورية راجعاً اولاً للوثنيين من العرب ثم للمسيحيين قبل الفتح الاسلامي . ولا يزال المسيحي عاملاً في سبيل هذه اللغة في سورية ومصر والعراق ، حتى وفي ما وراء البحار — في العالم الجديد .

ولكن اللغة وحدها لاتوحد العناصر ، ولاتتغلب على العصبيات. كان اللخمي والازدي واحداً في العربية ، ولكن العصبية ظلت مستحوذة على الاثنين، وصار فوق ذلك يتعصبان لاسيادهما الاجانب، الواحد للفرس والثاني للرومان.

ولا الدين ، وان كان دين التوحيد ، يساعد في تحقيق الوحدة العنصرية والقومية . كان القيسي واليماني واحداً في الاسلام، وظلا في العصبية المفككة لاوصال الوطن قيسياً ويمانياً، ناهيك بالدول الاسلامية المتعددة التي قامت بعضها على بعض ، وشيدت بعضها على انقاض بعض ، باسم العصبية ، تلك العصبية التي كانت السبب الاول والاكبر في سقوطها كلها .

ولا تزال العصبيات الدينية والجنسية ، او الاقليمية، متغلبة على عوامل اللغة والدين . لا يزال للفينيقي والاشوري والحثي والكنعاني والنبطي واليوناني والرومي والآرامي أثر حيّ مفسد في حياة السوريين الاجتماعية والوطنية . ولا يزال للاوثان الغربية والشرقية — للبعل والزُهرة واللات وعشتروت — اثر ظاهر في اديانهم .

انت سورية بلادي . انت بابل العصبيات . وانت بابل الاديان

الفصل الثامن

الدولة الاموية

تعود الناس ان يقبلوا احكام التاريخ دون ان يعيدوا النظر فيها . وتعوّد الكتاب والمؤرخون ان ينقلوا و يقتبسوا بعضهم عن بعض دون ان يحكموا العقل في ما ينقلون و يقتبسون . اما هذه النبذة التاريخية فلا حكم فيها لغير العقل والحقيقة .

قامت فى الشام على اثر الفتح العربي دولة عربية مجيدة ، مجيدة فى ثلاثة امور لاغير، اي في فتوحاتها ، وفي ترفها ، وفي تعزيزها اللغة العربية . وما سوى ذلك فالمؤرخون في الكلام عليها اثنان : متحيز ومتحامل . اما كاتب هذه النبذة فلا ناقة له في الفيحاء ولا جمل في النجف .

اذن ، بعد التوكل على الله والحقيقة ، اقول : كانت الدولة الاموية بعيدة عن العدل — عن عدل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم اجمعين — بُعد الشام عن الكوفة . وكانت الدولة الاموية بعيدة عن الحكمة في اكثر اعمالها ، وعن النظام والادارة في اكثر

احوالها ، بعد عاصمتها عن السند والاندلس ·

لا يسمح نطاق هـذه النبذة بالتوسع في البحث · ولكني ، اذا ما عرّفت القاريء الى الخلفاء الامويين واحداً واحداً بكلمة او كلمتين ، اكون قد أديت البرهان على ما قلت في الفقرة السابقة ·

اول الخلفاء الامويين معاوية ، وهو ولا ريب من كبار مَن اسسوا ملكاً في العالم · وهو الاموي الوحيد الذي استطاع ان يعدل في العصبيات فلم يؤثر واحدة على اخرى · الاَّ أن له زلاَّت ، والكبرى فيها هي انه سمح بذم علي ابن ابي طالب على منابر الامصار ، فتأججت النيران في صدور شيعته وظلت تستعر حتى بلغت الشام فالتهمت العرش الاموي · فاين الحلم الذي يصفه به المؤرخون ؟ ومن زلاته انه كان يشتري الانصار فينصرونه بالسنتهم وبايديهم لا بقلوبهم · وقد طالما تساهل في امور ادارية نعدها اليوم خيانة وطنية [1] · ومن زلاته انه عين

---

(١) مثال ذلك تنازله عن مصر لعمرو بن العاص لقاء الولاء والاعتراف بالسيادة الاموية الاسمية · فقد جاء في صك التعيين انه اي معاوية أعطى عمرو بن العاص مصر واهلها ! هبة يتصرف بها كيف شاء · وقد تصرف ابن العاص بخراج مصر في الاقل كما شاء ·

ابنه يزيداً خلفاً له ، وهو عالم انه مكسال محبٌ للهو والطرب ·

وكان يزيد مولعاً بتربيـة القرود والكلاب اكثر من ولعه بتربية الملك وتوطيـد اركانه ، بتربيته بالحكمة وتوطيد اركانه بالصالحات · لولا ذلك لما قُتل الحسين في كربلاء · فقـد كان في طاقة الجيش الاموي الكبير ان يأسر الحسين وقافلتـه التي لم يتجاوز عددها الستين نفراً ويجيء بهم كلهم اسرى الى دمشق · وقد كان في طاقة الخليفة يزيد ، لو كان على شيء من فضائل ابيه ، ان يمنع جنوده عن نهب المدينة بعد فتحها ، او انه في الاقل لا يبيحها لهم ثلاثة ايام ·

اما ثالث الخلفاء معاوية بن يزيد فكان خليقاً بان يكون من الزهاد لا من الملوك ·

والرابع مروان بن الحكم اخذ الخلافة بالسيف وكان يحاول ان ينسج على منوال معاوية الكبير · ولكنه قُتل غدراً في الشهر التاسع من ولايته ·

والخامس عبد الملك بن مروان الذي يعـده المؤرخون مع معاوية من الطراز الاول · فقد حكم نيفاً وعشرين سنة حكماً عسكرياً اوتوقراطياً ، فكثرت حروبه · ولولا المال الذي كان

يبذله لما كان فيها موفقاً . هو الذي صالح الروم على مال يؤديه اليهم — الف دينار كل يوم ، وفرس وغلام ؟

وعبد الملك بن مروان هو اول من قيد حرية الكلام في حضرة الخلفاء ، فلم يعد العرب في عهده وبعده يراجعون الخليفة كما كانت عادتهم — وكما هي عادتهم اليوم في نجد وفي اليمن — ويعترضون عليه . لو كان في عهد عبد الملك صحافة لما تمتعت يوماً واحداً بالحرية التي هي كنزها وكنز الحقيقة الاكبر .

وعبد الملك بن مروان هو الذي امر بردم العيون والابار في البحرين ليفقر اهلها فيلينوا للحكام .[1]

وعبد الملك بن مروان هو الذي امّر الحجاج على الحجاز ثم على العراق — الحجاج بن يوسف[2] جزّار ذاك الزمان .

اما الوليد بن عبد الملك الذي تولى بعد ابيه فقد حكم تسع سنوات حكماً حسناً . وكثرت لشغفه بالعمار الابنية الكبيرة

---

(١) راجع « ملوك العرب » الجزء الثاني ، صفحة ٢٠٦

(٢) يقال انه بلغ عدد من قتلهم عشرين الفاً ، ومن سجنهم من رجال ونساء ثمانين الفاً . ومهما اسقطنا من هذا العدد تجنباً للمبالغة يظل الحجاج فريداً في شهرته الفظيعة .

خصوصاً المساجد بدمشق · ولكنه لكثرة ما كان يبذله من الخراج ، على ما يظهر ، في البناء قلت لديه الاموال ، ففعل ما فعله في هذا الزمان رئيس وزراء فرنسة · ففتش الوليد الدواوين وألغى الكثير من الوظائف غير اللازمة · « اضطر الى احصاء اهل الديوان » — كلام المؤرخ — « والغى منهم بشراً كثيراً بلغ عددهم عشرين الفاً »[1] ·

سابع الخلفاء سليمان بن عبد الملك رحمه الله لانه « اعتق سبعين الف مملوك ومملوكة[2] وكساهم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في سجن العراق » ومن حسنات سليمان انه اوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز ·

وعمر بن عبد العزيز ثامن الخلفاء هو اعقل الامويين واعدلهم[3] على انه لم يكن محبوباً من اهله · فبعد ان حكم سنتين

---

(١) سيدي كرد علي : كم كان في ديوان الوليد من الموظفين اذا كان الغى منهم عشرين الف موظف ؟ !

(٢) وكم كان يا استاذي عدد الارقاء في البلاد ؟

(٣) من خطبته حين وُلي الخلافة قوله : « من يصحبنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا · يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا

ونصف سنة ، حكم الخلفاء الراشدين ، مات مسموماً . والذي اصلحه عمر هذا افسده يزيد بعده .

يزيد بن عبد الملك تاسع الخلفاء ، ذاك العاشق الولهان ، مجنون ُحبابة التي كانت حاكمة في عهده [١] جلس على فراش الملك اربع سنوات وما كان حقه ان يجلس اربعة ايام .

العاشر هو هشام بن عبد الملك . وهشام هو آخر من ضفر اكليلاً من المجد للدولة الاموية .

اما الحادي عشر فهو ابن يزيد العاشق الولهان . هو الوليد الخليع ، السكير ، المشهور بالالحاد . قبل البيعة بالخلافة وهو سكران . كان ينبغي ان ُيعتقل لا ان ُيقتل ، لان في قتله استيقظت الفتنة واضطرب بعد ذلك امر بني امية .

الخليفة الثاني عشر هو يزيد بن الوليد الذي حكم خمسة اشهر لا غير — خمسة اشهر مشؤمة كانت الفتن اثناءها اشد من

على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يغتابن احداً ، ولا يعترض في ما لا يعنيه » .

(١) قال المؤرخ : وُعمّل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل ُحبابة .

الطاعون الذي انتشر في البلاد ، وذهب يزيد الثالث فريسة الدائين .

وكان اخوه ابراهيم الخليفة الثالث عشر ضعيفاً خوّارا ، فقد بايعه فريقٌ من الناس ونازعه فريق آخر ، فخلع نفسه .

اما آخر الخلفاء مروان بن محمد بن مروان ، فقد كانت الخطوب في عهده اكبر منه . واكبرها امر ابي مسلم الخراساني الذي أظهر الدعوة علناً لبني هاشم ، وجرد في سبيلها جيشاً قاده عمه عبدالله بن علي ، فزحف على مروان الذي كان قد جاء العراق بجيش من اهل الشام ، فالتقى الجيشان في وقعة الزاب قرب الموصل (١٣٢ هـ = ٧٥٠ م) وكانت الغلبة لعبدالله . انكسر مروان لتخاذل اهل الشام . وما تخاذل اهل الشام الا لما نالهم من ظلم الامويين .

فكم واحد من هؤلاء الخلفاء الاربعة عشرة احسن سياسة الملك ؟ وكم واحد كان يستحق ان يحكم العباد ؟

معاوية في الدرجة الاولى ، ثم عمر بن عبد العزيز ، ثم الوليد بن عبد الملك ، واخوه هشام . اربعة من اربعة عشر .

اما العشرة الباقون فقد كان العجز قيد الصالحين منهم

وكان الشر قيد الآخرين · كبيرهم يعطي بغير حساب ، وصغيرهم يظلم بغير حساب · وكلهم يصرفون اموال الامة في مجالس الانس والطرب على القيان والراقصات والندماء والشعراء ·

والعجيب في امر اولئك الامويين ، الموصوفين بالنباهة والدهاء ، والحكمة والذكاء ، ان الفتن كانت تستمر في حمص ولبنان وفلسطين ، وفي الشام نفسها ، وهم غافلون او مشتغلون عنها في محاربة الروم وفي الفتوحات ·

وما الفائدة من الفتوحات للدولة وليس بين العاصمة والبلدان المحتلة صلة عمران او سيادة · ما الذي كان يربط القيروان مثلاً بالشام ؟

من الهند الى الاندلس ! انه لملك عظيم بعيد الارجاء · وكيف كان الامويون يحكمون تلك البلدان الشاسعة القصيه يا ترى ؟ الجواب انهم لم يحكموها · فقد كان القائد العربي يفتح البلاد ويتولاها باسم الخليفة دون ان يراجعه في اكثر الامور · وكثيراً ما كان اولئك القواد يتصرفون بالاموال وبالرجال كيفما شاءوا · مثال ذلك عمرو بن العاص في مصر والحجاج بن يوسف في العراق ·

وكان الخليفة بدمشق راضياً بان يذكر اسمه في الخطبة بالقاهرة او بالقيروان. واذا جاءه منها بعض الخراج فنعمة كريم.

اجل، قد كان الامويون يهتمون للبعيد غير المثمر الا مجداً، ويهملون القريب وفيه الصالح الاكبر او الخطر الاشد.

اما العدل في الرعية، العدل الذي هو اساس الملك، فهو ينعكس من الجالس على العرش. وقد عرفت ارباب العرش وفيهم العاجز والسفيه والخليع والسكير والظالم. وهاك شهادة اخرى من واحد من اهل هذا البيت:

« سئل احد شيوخ بني امية بعد زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا، فتمنوا الراحة منا. وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا. وخربت ضياعنا فخربت بيوت اموالنا. ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا. وأمضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا. وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا ».

هذي هي الدولة التي تمدحون.

استولى الامويون على الملك بخدعتَين، في وقعة صفين وبعدها في التحكيم، فملكوا تسعين سنة. واستولى عليه العباسيون

بمذبحة تلتها مذابح في سورية وفلسطين والعراق ·

وعقبت المذابح الفوضى وقد اقتدى اربابها بابي العباس السفاح ·

— هذا العُمَيْطِر يدعو لنفسه بالشام ، فبايعته اليمانية ، وقاومته القيسية ، ففتك بهم ونهب دورهم وأحرقها ·

— وهذا ابن بَيهس يحارب العُمَيطِر ثم يستولي على دمشق وينكل باهلها ·

— وهذا المُبَرقع يدّعي الخلافة ويخرج بخمسين الفاً من اهل اليمن على الخليفة العباسي فيحاربه ويقع بيده اسيراً ·

— واستمرت الفتن تضطرم ونار العصبيات تستعر في بلاد الشام في عهد العباسيين ، من السفاح الى المأمون ، فلم يستطيعوا اخمادها ·

وكانت الدوائر تدور كلها ، لا على الباغين — الظالمين السفاحين — بل على الاهالي المساكين ، على اولئك الذين يدفعون الضرائب ويلبون الدعوة للجهاد ؟

انت سوريه بلادي ،

انت عنوان الفخامة ؟

الفصل التاسع

الدول الكلية

حكم الرومان البلاد السورية بمساعدة العرب سبعمئة سنة. ولم تدم دولة من الدول العربية الاسلامية او الوثنية اكثر من مئتي سنة. فما السبب في ثبات الاعاجم وفي تزعزع السيادة الوطنية واضمحلالها؟ اني ارى — والرأي يظهر غريباً — ان السبب الاول والأهم في طول حكم الرومان وقصر مدات الاحكام العربية هو واحد — هو الظلم.

فالظلم في العهد غير العربي، الظلم المنظم، تنفذ احكامه القوة القاهرة، وتساعد في التنفيذ، لمال او جاه او نكاية، عرب غسان وتنوخ، هم السبب في دوام السيادة الاجنبية. اجل، قد استولى الرومان على البلاد بواسطة امرائها والمتنفذين من ابنائها.

والظلم هو السبب الاول والأهم في زوال الدول العربية. واليك البرهان. كان حكم الخلفاء حكماً فردياً اوتوقراطياً يرتكز

على عصبية من العصبيات المتعددة ، لا على الجنسية العربية الشاملة لكل العصبيات . لذلك لم يتمكن الخلفاء الامويون من اخماد الفتن الناشئة عن العصبيات المعادية لها في العراق . ولذلك لم يتمكن الخلفاء العباسيون من التغلب على العصبيات التي استعرت نيرانها بعد سقوط الامويين في بلاد الشام .

انه في الاجمال لحكم ظالم ، لا عدل فيه لغير العصبية المرتكز عليها . ومثل هذا العدل هو نوع آخر من الظلم . الا ان الحكومة الظالمة التي تفتقر الى قوة ادارية وجندية منظمة ، والتي ينخر في اصولها سوس العصبيات ، تظل متزعزعة ولا تلبث ان تسقط وتضمحل .

يقول المؤرخ ان ابن طولون (مثلاً) كان على جانب من العدل وحسن السيرة ، وانه فكر كثيراً في عمران مملكته « حتى زاد خراجها » .

زاد خراجها ؟ ؟ وهل في ذلك دليل على العمران ؟ اما حان لنا ان ننظر الى حوادث التاريخ من وجهة حديثة عالية عامة ؟ اني اسألك : كيف كان يُصرف الخراج ؟ واذا كنت في شغل يشغلك عن بحث مثل هذه المسائل فانا اجيب عنك . كان الخليفة

اذا كان من الصالحين ، يصرف قسما كبيراً من الخراج فى بناء المساجد والمدارس المسجدية . واذا كان كالوليد بن يزيد او كهرون الرشيد فمعظم الخراج انما هو لنفسه ولأهله ولمحظياته وعبيده والمقربين منه . واذا كان كبيراً كمعاوية او ظالماً كعبد الملك بن مروان فبيت المال في نظره إنما هو لشراء الانصار وتسكين الاعداء ..

اما الناس — العدد الاكبر من الامة — اولئك الذين يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج ، ثم يحملون السلاح للجهاد — فدعهم يعيشون في جهلهم وأوساخهم وامراضهم وشقائهم المستمر .

— وارسل الله القرامطة على هذه الممالك تأديباً وتطهيرا . فقام الحكام يسوقون الى القتال اولئك الذين يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج . الى الجهاد ؟ الى الجحيم ! حملوا السلاح ليردوا القرامطة عن امرائهم وحكامهم ، وما كان القرامطة بأشر من اولئك الظالمين .

أتعجب بعد ذلك اذا قيل في الاخشيد الاول ان في زوال ملكه فرحاً للعالم ؟

وهذا سيف الدولة علي بن حمدان عدو الروم وخصم الاخشيد · سيف الدولة الذي حكم وحارب من سنة ٣٣٣ الى سنة ٣٥٦ (٩٤٥ — ٩٦٧ م) فكان مظفراً سعيداً في حروبه كلها، وجائراً كل الجور على رعيته · سيف الدولة الذي « اشتد بكاء الناس عليه ومنه » كما يقول الازدي · وقال صاحب الخطط ، الذي يعود الى النزاهة التاريخية بعد ان يكون قد تعب بها واركبها مطية الغرض ، ان سيف الدولة « كان يخرب قرية ليجيز شاعراً مدحه بقصيدة » ·

وكان قاضيه ابو الحصين يقول : « كل من هلك ، فلسيف الدولة ما ترك » ··· وادرك القدر القاضي ابا الحصين ، فقتل في احدى المعارك ، فداسه سيف الدولة بحصانه قائلا : « لا رضي الله عنك · فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم » ·

ولا رضي الله عمن ولج باباً من تلك الابواب ·

كان بنو حمدان وبنو اخشيد من عمال خلفاء بغداد — من عمالهم العاملين في سبيل انفسهم وشهواتهم · ويا لها من مهزلة ، مهزلة ذاك الملك · اسمع الاخشيديين والحمدانيين يخاطبون بني العباس الخلفاء : — سنضرب السكة باسمكم : على الرأس والعين ·

وسندعو لكم في الخطبة : حباً وكرامة . ولا نكلفكم بعد ذلك شيئاً .

يضربون الدينار باسم خليفة بغداد ، ويتصرفون به كيفما شاءوا . ويخطبون لذاك الخليفة في الجوامع ، ثم يهملونه كل الاهمال خارجها ... والظلم من شيم النفوس ... اخسأ يا ابا الطيب ؟

— ومن مظالم سيف الدولة ما فعله ببني حمدان ابناء عمه . «أكبَّ عليهم بصنوف الجور» — الكلام لابن حوقل — «حتى خرجوا بذراريهم في اثني عشر الف فارس الى الروم وتنصروا باجمعهم» .

— وكان يقف على مائدة هذا الامير اربعة وعشرون طبيباً — قل خمسة اطباء تجنباً للمبالغة — لينصحوا له بتناول ما ينفع مزاجه ، بينما الرعية تبكي من جوره وتشكو الى الله ... قبح الله وجهك ، ايها المتنبي .

اما الآفة السياسية الكبرى في الدول العربية كلها فهي هذه : عندما حمل الفاطميون على الحمدانيين استنجد هؤلاء بصاحب الروم عدوهم الاول على عدوهم الجديد . الاجنبي ، ولا

الخصم العربي !

وقد استنجد بالروم ايضاً ذاك الذي خرج على الفاطميين المسمى منجوكتين ، فلم ينجدوه ، فكسره ابو تميم الفاطمي .

— « وركب ابو تميم المستنصر بالله الى المسجد الجامع يوم الجمعة بزي اهل الوقار (وهو من اهل الدعارة) وبين يديه القراء وقوم يفرقون الدراهم على اهل المسكنة » . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً . فقد هجم الناس عليه في قصره ، وهو غائص في ملذاته ، ففر من دمشق هاربا .

واشتعلت في المدينة نار الفتنة التي نفخ فيها رجل يعرف بالدُهَيْقِن ، فجاء محمد بن الصمصامة يخمد نارها ، فأخمد انفاس الوف من العباد .

— وكان اهل صور قد نفخوا في بوق العصيان (٣٨٨ هـ ٩٩٩ م .) وأمّروا عليهم رجلا ملاحاً يدعى العلاّقة ، ضرب السكة باسمه وكتب عليها : « عز بعد فاقة ، لامير علاقة » فارسل الفاطمي عليه اسطولاً ، فاستجار العلاقة بملك الروم ، كما استجار قبله الحمدانيون .

— وقام صاحب الروم دوقس انطاكية يبغي الاستيلاء على

افامية فزحف ابن الصمصامة عليه فقتله وشتت شمل رجاله .

— وكان المفرّج بن دغفل بن الجراح قد نزل على الرملة وعاث فيها ، فجاء جيش الصمصامة يؤدبه . والويل من المؤدبين .

اما الصمصامة هذا ، الذي تولى نيابة دمشق للفاطميين ، فقد كان مثل سيف الدولة ظافراً سعيداً في حروبه . وكان كذلك ظالماً عتيا ، سفاكا للدماء . قال المؤرخ : « وعمّ الناس في ولايته البلاء من القتل واخذ المال حتى لم يبق بيت في دمشق ولا بظاهرها الا امتلاء من جوره ، خلا من كان ظالماً يعينه على ظلمه ... والظلم من شيم النفوس ؟ ! ... لا رضي الله عنك ايها المتنبي .

وشُيدت دولة بني مرداس على مبدأ الدولة الحمدانية . وكذلك دولة بني جراح ، ودولة بني سنان ، اي دول بني كلب — دول الكلاب كلها !

فمنذ سنة ٢٥٤ه . الى سنة ٤٦٣ (٨٦٧ — ١٠٦٧ م .) كان الحكم في هذه البلاد السورية حكم « ابجناها لكم » . ولا فرق اذا كانت الدولة طولونية او اخشيدية او حمدانية او كلبية .

فيا لتعس الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان المظلم ، وكل

حاكم فيه يباري زميله ، او يباهي خصمه ، بالمظالم والمذابح ، وبالنهب والسلب والسبي والتدمير ·

— ابحناها لكم ثلاثة ايام !

« للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا

والنهب ما جمعوا والنـار ما زرعوا »

يا للهول ويا للويل ، رحم الله من عاشوا في زمن الاباحات ، ولا رحم الله اربابهـا وجنودهم · أبشرٌ ُخلقوا على صورة الله ومثاله يتحوَّلون في ساعة واحدة الى وحوش ضارية ؟

وهل يستحق اولئك البرابرة خمسين صفحة في التاريخ ؟ انهم لا يستحقون والله اكثر من سطر ، فيه كل امرهم · فقد تحـاربوا ، وتكالبوا ، وذبحوا ، ونهبوا ، وفسقوا ، ودمّروا · وبكلمة اخرى : قد استباحوا كل حلال من عرض ودم ومال ·

وهم ايضاً اجدادنا ·

الفصل العاشر

الصليبيون

ها انا في دور السلجوقيين والتركمان الذين حكموا الشام حقباً من الزمن وفاقوا الدول الكلبية في الجور والفساد . والعجيب من امرهم انه لم يكن يهمهم غير « اعلاء كلمة الله » .

هاكم السلطان آلب ارسلان الذي حمل كفنه في الحروب وما حمل في سبيل تلك « الكلمة » غير السيف ، يفتح حلب (٤٦٣ هـ ١٠٧١ م) وهي من بلاد المسلمين لا من بلاد الروم . ثم يحمل على الروم ليكفر عن ذنوبه في حلب فيكسرهم ويأسر ملكهم . ثم يموت مطعوناً بخنجر احد اعدائه المسلمين « اعلاء لكلمة الله » .

وهذا أتسز بن أوق احد كبار التركمان . اسم اعجمي عجيب وشخصية بربرية أعجب . حاصر أتسز دمشق مراراً فظفر بها (٤٦٨ هـ ١٠٧٦ م) فكان الفتح وكان الخراب المبين .

— « خربت دمشق واعمالها وخلت الاماكن من قاطنيها ،

والغوطة من فلاحيها · وهان على الناس ترك الديار والاملاك »
لما قاسوه من مظالم هذا الاتسز بن أوق ؟

وما كان خيراً منه بنو اتابك وبنو أُرتق الملوك المماليك الذين ختموا مظالم الاجيال في اواخر القرن الخامس للهجرة · ختموها ؟ قل : خرجوا من مسرحها ·

وبدت اذ ذاك طلائع الطامة الكبرى في هذه الديار السورية — طلائع الحروب الصليبية التي استمرت في حالة متقطعة مئتي سنة (٤٩٠ — ٦٩٠ هـ · ١٠٩٦ — ١٢٩٠ م ·)

هو عهد الظلمات في اوروبة · او هي الاحقاب المظلمة ، كما تدعى هناك · وقد كانت ظلماتهم اشد من ظلماتنا · وكذلك الظلامات · اما الاسباب ، الاسباب كلها هنا وهناك ، فهي تنحصر في ثلاثة ، الجهل والطمع والتعصب الديني ·

نعم ، قد جرت الدماء البشرية انهراً باسم الدين · وُهدّمت موارد الحياة وصروحها باسم الدين · وزُرعت الارض عظاماً انسانية باسم الدين · وامتلاء الفضاء سماً وظلاماً باسم الدين · وتناسلت الشعوب بالغل والشنآن من اجل الدين ·

كانت تلك الحروب الدينية اعظم ويلاً على البلاد السورية

من سواها . وكان الصليبيون اشد ظلماً وتوحشاً من اولئك الامراء الاسيويين ذوي الاسماء العجيبة ، الذين اجتاحوا باسم الاسلام ، بل باسم السنة مرة والشيعة اخرى ، هذه الديار التاعسة البائسة المشئومة .

— وها كم واحداً من اتباع شيخ الجبل حسن الصباح الاسماعيلي ، وقد استولى على دمشق وشرع يمثل الجحيم — لا الجنة مثل شيخه الشيخ حسن بالَموت — على الارض .

كثرت قبائح شمس الملوك اسماعيل وقبائح عماله . وقام بعد ذلك ، نكاية باهل السنة ، يخون البلاد فيسلمها الى العدو الافرنجي فقتلته امه لتريح المسلمين من شره وظلمه .

— واولئك الافرنج ، وقد فتحوا القدس ، « يكرهون العرب على القاء انفسهم من اعالي البروج والبيوت — الكلام للمؤرخ الافرنسي ميشو — ويجعلونهم طعماً للنار . ويخرجونهم من الاقبية ، ويجرونهم في الساحات ، ثم يقتلونهم فوق جثث الآدميين . وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون اهله ، ويخربون عمرانه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره » .

وكان الافرنج في انطاكية وغيرها (من بلاد العلويين)

يمالئون الاسماعيليين ، وهم كفرة في نظرهم مثل المسلمين ، فظاهروهم على اعداء الصليب كما يظاهرون الفرنسيس اليوم على العرب ٠

وقد نصر الموارنة كذلك الافرنج كما نصروا الرومان على العرب من قبل ، وكما نصروا الفرنسيس من بعد ٠

والغريب العجيب ان يجمع الغرض بين هاتين الاقليتين المارونية والعلوية ، وكلتاهما متمسكة بعقيدتها وباوليائها اشد التمسك ، فتسلكان مسلكاً واحداً في الماضي وفي الحاضر ، وتكونان مع السائدين من الاجانب على اهل البلاد الوطنيين ٠

لم ينتصر الصليبيون في باديء امرهم لمجرد ان الموارنة والعلويين ساعدوهم على المسلمين ٠ بل لانهم كانوا متحدين ، وكان امراء العرب متنابذين متخاذلين ٠ ٠ ٠ وكيف يخضع صاحب آمد لصاحب دمشق ، او صاحب حلب لصاحب الموصل ، وكل منهم يظن نفسه ظل الله على الارض ٠

قف ها هنا ايها القاريء وفكر قليلاً في حاضر هذه الامة ، وفي التفريق المصطنع وغير المصطنع في البلاد ، في هذه البلاد السورية القديمة وليس فيها شيء جديد ٠ بل قل وانت منها :

ما أطغمني وما اذلني اذا كنت لا انبذ مثل ذاك الماضي، ولا اخرج على مثل هذا الحاضر، فاسعى واجاهد ليكون في بلادي شيء جديد، شيء شريف، سديد مفيد.

لم تخلُ الحروب الصليبية من كبير او كبيرين في كرم الاخلاق كنور الدين وريكاردوس قلب الاسد وصلاح الدين.

ولكنهم في الحرب واحد ... فصلاح الدين مثلاً مثل سواه من الفاتحين، يقطع الاشجار، ويحرق الزرع (اذكر وصية ابي بكر لابي عبيدة) ويروّع الآمنين، ويجلي الفلاحين، ويقتل خلقاً كثيراً، كما قال هو نفسه في رسالة الى اخيه، لانهم لم يقبلوا الاسلام.

قال المؤرخ: «بينا كانت داخلية البلاد مشتغلة بالنصب والعزل وتقاتل ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان، اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا الى عكا، فضربوها واحتلوها ونهبوها الخ.

هم متحدون وانتم متشاقون متخاذلون. انتم الفاطميون وفيكم المعز لدين الله والمستنصر بالله والحاكم بامر الله الذين نبرأ منهم الى الله. وانتم الايوبيون وفيكم الصالح والعادل والكامل

والاشرف والافضل والظاهر والناصر ، وليس فيكم والحق يقال الا القليل القليل من العدل والفضل والصلاح . فالكامل ناقص ، والعادل ظالم ، والظاهر مكسور ، والناس مُرهَقون ، مظلومون على الدوام .

فهل يلامون اذا هم سلكوا مسلك الثعالب الى خيرهم ، بل الى خلاصهم ؟ قال ابن ابي شامة : « كُسرت الفرنج ومن انضم اليهم من منافقي الاسلام كسرة عظيمة في عسقلان » .

من منافقي الاسلام ؟ ؟ على رسلك ابن ابي شامة . فقد كان الناس في تلك الايام مثل ملوكهم يعملون لصالحهم قبل كل شيء . وليس ثمة وطنية يخلصون لها او يخونونها .

انت سوريه بلادي ،

انت مهد الانبياء .

الفصل الحادي عشر

هول هولاكو

هبت هبوب الجحيم من الشرق ، من قلب آسية ، فغَشِيت سورية بلادي . جاء هولاكو بجيوشه التتر والمغول (٦٥٨ هـ . ١٢٥٩ م .) يحملون السيف والنار ، ولا يحسنون غير القتل والدمار . فاستولوا على القلاع والحصون ، وفتكوا بالناس فتك الضواري ، ودخلوا المدن فاتحين ، ناهبين ، محرقين ، مفحشين .

وكان نصارى الشرق والاسماعيلية (وما الصلة بين الاثنين غير تألم المستضعفين) من الشامتين لما حل بالشام من هول هولاكو قال الذهبي : « ورفعوا (نصارى الشرق) الصليب في البلد والزموا النـاس بالقيام له في الحوانيت ، ونقضوا العهد وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح » .

وما لبث ان انتصر المسلمون على هولاكو في وقعة عين جالوت بين بيسان ونابلس « فجاء الخبر الى دمشق في الليل ، فوقع النهب والقتل في النصارى ، وأحرقت كنيستهم العظمى » . . .

— وسارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشري ، فصعدوا في وادي حيرونا « وحاصروا اهدن حصاراً شديداً . وبعد اربعين يوماً ملكوها ، فنهبوا ، وقتلوا ، وسبوا ، وهدموا القلعة التي في وسط القرية ، والحصن الذي على رأس الجبل » . ثم فتحوا بقوفا ومثّلوا باكابرها ، وضربوا الحصون ، وأحرقوا الحدث . . . وظهر الدين الصحيح ، دين المسيح . لله من تاريخ هو سلسلة من النكبات والانتقامات .

اما المغول فقد قصدوا دمشق في سنة ٦٨٣ (١٢٨٤ م .) وعفّوا عنها . انما الاعمال بالنيات . ثم ذهبوا الى وادي التيم فأحرقوها ، وسبوا اهلها ، وقتلوا منهم نحواً من سبعمئة نفس .

— وزحفت عساكر المسلمين الى طرابلس حيث كانت بقية من الصليبيين ، فحاصروا المدينة ، فلجأ اهلها الى المراكب في البحر ، فلحق العسكر بهم الى الجزيرة قبالة المينا . عبروا البحر بخيولهم اليها ، فقتلوا جميع من كان فيها من الرجال . اما النساء فقد فضلن الموت على ما حلّ بهن . « وامر السلطان فهدمت طرابلس ودكت الى الارض » .

— ونزل الكسروانيون والجرديون من لبنان انجدة الفرنج

فقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً . فصدر الامر من نائب دمشق الى القائد العام أن اجمع العساكر الشامية وازحف بها على الجبل لاستئصال شأفة اهله .

صعد الجنود الى معاقل اللبنانيين فحاقوا بها ، ودخلوها ، فذبحوا بالرجال ، وسبوا النساء ، وجعلوا اعالي الديار اسفلها .

وكان ذلك كله في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد .

. . . .

لبنانَ بلدي ، راح الصليبي وبقيت انت ، فهلاَّ تعلمت ! ؟

الفصل الثاني عشر

دولة المماليك

عفّ هولاكو عن دمشق ، فجاء بعد خمس عشرة سنة حفيده غازان بجيش من التتر جرّار ، فكسر المسلمين في جوار حمص ، وتتبع المنهزمين حتى بلغ دمشق ، فضربها واستولى عليها ، ونهب ضياعها ، وسبى اهلها ·

قال المؤرخ : « اسروا من الصالحية نحو اربعة الاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمئة اكثرهم في التعذيب على المال » ·

وقال غازان انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون من طريق الدين ، غير متمسكين باحكام الاسلام · وكان اولئك الحكام المسلمون يحاربون النصارى لانهم كفرة مشركون · سبحان الله ؟ ·

وقال مغلطاي : انه حُمل الى خزانة غازان ثلاثة الاف الف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقرّرات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء · هوذا طريق الدين القويم؟

وهاكم بعد غازان مئة سنة (٦٩٠ـ ٧٩٠ه: ١٢٩٠ ـ ١٣٨٧م.) من دولة المماليك البحرية، المماليك الشركس والاتراك، الشديدي النعرة الدينية، القليلي العدل والحكمة، الضعيفي الحلم والارادة، الجالسين على العرش بالقاهرة، الحاكمين بامرهم في بلاد الشام..

فما كاد يزول كابوس الصليبيين عن البلاد حتى احتدم القتال بين عمّال المماليك والتتر. فسرت شروره الى لبنان، فقام الكسروانيون ثانية يناوئون الشاميين من اجل من تبقى في السواحل من الافرنج.

وكانت وقعة عند جبيل، فكسر الكسروانيون الجيش الشامي، وقتلوا اكثر رجاله، فغنموا امتعتهم مع اربعة الآف رأس من الخيل.

واستمر النزاع بين الفريقين، فجاء الافرم نائب دمشق بنفسه يقود جيشاً عظيماً ليفتح كسروان من الجهة الشمالية (فسميت تلك الجهة الفتوح؟) بل كانت الحملة على بلاد الظنيين (الضنية؟) «فدخل العسكر تلك الجبال فحرقوا القرى، وقطعوا الكروم، وهدموا البيَع، وقتلوا جميع من صادفوا من الكسروانيين».

ثم ظهرت في حوران فتنة بين اليمنية والقيسية ، فتقاتلوا قتالاً شديداً ، وبلغت المقتلة الف نفس ·

— وهاكم جيش التراكمين والعربان يزحف الى آمد فيباغتها وينهب اهلها المسلمين والنصارى ·

— وهاكم الارمن (كان قد سبق لهم مع المسلمين مواقع ومناجزات وغزوات وكسرات) يعودون الى مدينة سيس فيملكونها ، ويطردون من كان فيها من المسلمين ، ويعملون ايدي النهب والخراب في آذنه وطرسوس مثل سواهم من المتغلبين ·

يوم لنا · ويوم علينا · ولا يوم للرحمة ، ولا يوم للحكمة ، ولا يوماً واحداً للتساهل ·

— وهاكم الافرنج يعودون الى بيروت في عشرين مركباً ، فيقوم مَن يدعو الناس للجهاد في سبيل الله ، فيلبي الدعوة جماعة من البيروتيين ، فيحولون بين الافرنج والبحر ، ويذبحونهم ويغنمون مراكبهم ·

— « ومن الاحداث » ان نائب الشام يلبغا اليحباوي

هرب منها ، فتبعه جماعة من عسكرها ، فتقاتل معهم ، فقطعوا رأسه ، وحملوه الى السلطان بمصر · ولماذا هرب يَلْبغا ؟ الجواب في التوراة (امثال ٢٨ : ١)

واشتد غضب نائب حلب يَدْبغا آروس (اخو يلبغا في الجنسية والهمجيـة) فأمر عسكره بان ينهبوا دمشق وضياعها ، ويقطعوا الاشجار · فنهبوا فوق ذلك « النساء والبنات والقماش ، وجرى على اهل دمشق من يَدْبغا آروس (السلام على أستز بن أوق) ما لم يجرِ عليهم من عسكر غازان » ·

— وظهر في جبال النصيرية (العلويين) رجل يدعي انه الامام المنتظر ، الامام الثاني عشر ، وانه المهدي ، وانه علي بن ابي طالب ، وانه المصطفى ؟ فتبعه نحو الفين من اهل تلك الجبال ، فهجم بهم على جبلة ، والناس في صلاة الجمعة ، فنهبوها باسم علي والمهدي والامام المنتظَر ·

— وفتح المسلمون جزيرة ارواد فذبحوا الفين ممن كانوا فيها من الافرنج واسروا الباقين ·

— وقتل السلطان نائبه في الشام تنكز (التتري) الذي

قتل اناساً كثيرين ، فارتاحت البلاد » .

السنيون يذّبحون النصارى ، والاسماعيليون العلويون ينهبون ويذّبحون السنيين ، ويلبغا ويبغا وتنكز واتباعهم ينكلون بالسنيين والعلويين والنصارى جميعاً .

انت سوريه بلادي !

انت عنوان الفخامة !

الفصل الثالث عشر

اهوال تيمورلنك

وهذه بعد مئة سنة من المماليك ثلاث عشرة سنة سوداء (٧٩٠—٨٠٣ هـ = ١٣٨٧—١٤٠١ م) من اهوال تيمورلنك المدمّر المميت ، الذي شرّف الشرق الادنى بدعوة من امرائها . لست مازحاً في ما اقول . فانّ الامراء المتنابذين المتخاذلين هم الذين « فتحوا لتيمورلنك السبيل لغزو البلاد غزوة أذلت العزيز ، وافقرت الغني ، وخربت العامر » .

وسيدي صاحب « الخطط » مثل سائر المؤرخين العرب لا يهمه من الامة على ما يظهر غير الاعزاء فيها والاغنياء . اما الشعب الذي يدفع الخراج ، ويأكل الكرباج ، فعليه بهلة المتباهلين .

وكان تيمورلنك هذا صاحب دعوى « آلهية » منكرة . الا انه ، وقد دخل في الاسلام ، لمن المرسلين المقرّبين .

— « بلغنا امر الهند وما هم عليه من الفساد ، فتوجهنا اليهم ،

فأظفرنا الله تعالى بهم . ثم زحفنا الى الكرخ فاظفرنا الله بهم (تعالى الله عن محالفة مثل هذا الغول المغولي) ثم بلغنا قلة ادب هذا الصبي ابن عثمان ، فاردنا عرك اذنه ،فشغلنا عنه بسيواس وغيرها من بلاده » .

وفتح تيمور ، صاحب هذا الكلام ، مدينة حلب فتحاً مبيناً ، فنهب ، وسبى ، وقتل . وطارد الجنود النساء فلجأْنَ الى الجوامع . وكانت المرأة تطلي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها » — الكلام من كتاب كنوز الذهب — « فيأتي عدو الله اليها ويغسل وجهها و يجامعها في الجامع » ... « وصارت الابكارُ تفتض في المساجد وآباؤهن يشاهدونهن » .

اربعة ايام كاملة من هذه الاباحات ، من هذه الفظائع — و — « وأظفرنا الله بحلب واهلها » .

اما دمشق فدخلها تيمور صلحاً . ولكنه قسم البلد بين امرائه ، فنزل كل امير في حيه ، وطلب من فيه وطالبهم بالاموال . فحلَّ باهل دمشق من البلاء ما يقف اليراع عنده عاجزاً . وجرى عليهم من اصناف العذاب ، وهتك الاعراض ، ما تقشعر منه الابدان . ثم سبوا النساء باجمعهن ، وساقوا الاولاد

والرجال مربطين بالحبال . وبعد ذلك طرحوا النار في المساجد والمنازل ، وكان يوماً عاصفاً فعم الحريق المدينة كلها .

* * *

وبعد خمسمئة وخمساً وعشرين سنة من هذا الحريق يجيئك يادمشق من الغرب قوم متمدنون ، فيدبّون في دباباتهم هادمين ، ويطيرون في طياراتهم مدمرين ، ويحرقون قصورك ، ويمثّلون بابنائك المجاهدين في الساحة التي شهدت مئات من الكوارث والنكبات .

* * *

اما صاحب « وأظفرنا الله بهم » فقد اجتاح البلدان السورية الكبيرة كلها ، واعمل فيها ، بعد النهب والسبي ، السيف والنار .

وجاء بعد تيمورلنك الجراد ، وبعد الجراد الطاعون ، فهلك في دمشق وحدها خمسون الف نفس .

* * *

وبعد خمسمئة وخمس عشرة سنة عاد تيمورلنك متجسداً

في الحرب العظمى ، وغزا الجراد لبنان في سنة الحرب الاولى . ثم جاءت المجاعة فهلك في الجبل وحده مئة الف نفس .

لبنان بلدي ،

سورية بلادي ،

أمن نكبة الى نكبة على الدوام ؟ !

الفصل الرابع عشر

الى المزبلة

استمر عهد المماليك الاخير مئة سنة ونيف (٨٠٣—٩٢٢هـ٠= ١٤٠١—١٥١٦ م٠) حدث في اثنائها في البلاد السورية مئة فتنة وفتنة ٠ واليك بمثال ملكي من اولئك المماليك يدعى الملك الناصر٠

هو الملك الفاجر السكير الذي كان يصدر اوامره الى عماله في سورية وهو في ضجة من السكر منكرة ٠« وكان يتسلى في خلواته » كما يقول الاستاذ كرد علي « بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء الفي مملوك للتسلية والتحلية »٠

اما التسلية فمفهومة ٠ ولكنني لم افهم معنى صديقي المؤرخ في «التحلية» فهل كان يزين القصر برؤوس اولئك المماليك ام كان يحلي شرابه بدمائهم؟

على ان الناصر كان في نهاية امره مدحوراً مذموماً ٠ فقد لقي ما يستحقه في دمشق اذ خلعه القضاة واثبتوا عليه الكفر لانه سفاك للدماء ، مدمن للخمر ٠ خُلع ، وسُجن ٠ ثم قتله في السجن

بعض الفدائيين ، والقوه على مزبلة خارج البلد وابقوه هناك ثلاثة ايام عبرة للناس ، فكانوا يجيئون افواجاً يتفرجون عليه ٠

— « وكانت الدنيا في ايامه حائلة ، وحقوق الناس ضائعة ٠ وقد خربت غالب البلاد الشامية لما قتل من ابطال ، ويتم من اطفال الخ ٠٠ »

وها كم الملك الاشرف برسباي خلفه بعد بضعة سنين بالجرائر والمعاصي ٠ هو برسباي « الرجل العظيم » برأي سيدي صاحب « الخطط » ٠

وقد قال فيه المقريزي : « كان له من الشح والبخل ، والطمع والجبن ، والحذر وسوء الظن ، ومقت الرعية ، وكثرة التلون ، وسرعة التقلب في الامور ، اخبار لم يسمع بمثلها ٠ ذلك مع بلوغ آماله ، ونيل اغراضه ، وقهر اعدائه ، وقتلهم بيد غيره ٠٠ وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب ٠ وقلّت الاموال فيها ، وافتقر الناس ، وساءت سيرة الولاة والحكام » ٠

فهل يستحق هذا « الرجل العظيم » غير ما كان من جزاء سلفه الملك الناصر ؟

الى المزبلة بمثل هؤلاء الملوك !

الفصل الخامس عشر

آل عثمان

عندما وصل الاتراك في فتوحاتهم الى الاستانة في اواخر القرن الخامس عشر كان قد انفتح في اوروبة ثلاثة ابواب للمدنية الحديثة ، الاول فتحه لوثيروس في ثورته على الكنيسة والبابا ، والثاني فتحه غوتمبرغ في اختراعه حروف الطباعة ، والثالث فتحه كولمبوس في اكتشافه اميركة .

اجل ، ان ذاك الاصلاح الديني وذينك الاختراع والاكتشاف لمن انوار المدنية الاوروبية التي استمرت في التقدم والارتقاء ، بينما كان الشرق الادنى يتخبط في الظلمات ، فيهبط من دركة الى اخرى ، ولا يخلص من ظالم سفيه ، إلاّ ليُبلى بمن هو أظلم وأسفه .

خرجت الامة السورية من حروب الصليبيين ، وإغارات المغول ، ومظالم الشركسة ، ومن مخالب الاوبئة والمجاعات ، وهي على آخر رمق من الحياة . لا ثروة ، ولا علم ،

ولا صناعة ، ولا امل يعيد اليها النشاط للعمل . فتطلع الناس الى الدولة التي اسسها السلطان عثمان التركماني على انقاض الدولة السلجوقية ، وهي يومذاك في ابان شبابها ومجدها ، وعقدوا عليها الآمال .

هو الخطأ الذي يخطاه السوريون ، او بالحري الاكثرية في السوريين وهم المسلمون ، اذ يظنون ان العمران والرقي والسعادة القومية لا تكون الا بدولة اسلامية ذات صولة واقتدار . اما العدل والمساواة ، والرفق بالرعية ، واحياء البلاد بالمشاريع الاقتصادية والصناعية ، فهي على ما يظهر امور ثانوية .

لولا ذلك لما كنا نتغنى بالدولة الاموية ، ونحبذ تجديدها ، وقد رأيناها ، وهي في ذروة المجد والاقتدار ، بعيدة عن ذلك العدل الذي زان سيرة الخلفاء الراشدين ، فلا تحسن معاملة الاقليات في المملكة حتى ولا العصبيات العربية الاسلامية خارج عصبيتها . والمشكل الاكبر في كل زمان من ازمنة هذا التاريخ هو هذه الاقليات والعصبيات التي نسيء اليها ، او لا نعدل فيها ، فندفعها الى المقاومة الطائشة العمياء التي تضيع عندها حتى مصالحها .

واننا نلوم بني امية لانهم من فخ العرب ومن اقرب الناس

الى ذاك الينبوع الانساني الذي تفجّر بمكة، ينبوع العدل والاخاء والمساواة . ولكن هناك ، كما تبين لنا ، مَن هم ابعد من بني امية بمراحل عديدة عن الضالة المنشودة .

فقد أخَّر الاسلامَ والمسلمين شعوبٌ اسيوية همجية ، دخلوا في هذا الدين العربي ولم يدخل في نفوسهم الا القليل القليل من فضائله ، فظلوا على فطرتهم الهمجية ، وقبلهم اهل الشام حكاماً لمجرد انهم مسلمون ذوو صولة واقتدار . وقد كان حظهم وحظ اخوانهم ابناء الوطن الواحد من اولئك الفاطميين والايوبيين والشراكسة والتراكمين ما هو مدوّن في التاريخ وملخص في هذه النبذة منه .

وما كان الشقاء ليعلّم سورية شيئاً في اتقاء شرور مثل تلك النزعات والسياسات . ولا كانت العبر تؤثر في رؤساء الامة ، وهم كلهم ينشدون مصالحهم الخاصة . لذلك ظفقوا يتلونون ويتذبذبون في اخلاصهم لملوك المماليك عندما خفقت اعلام الهلال الاحمر على ضفاف البسفور وفوق حصون الاستانة .

وما كان آخر ملوك الشراكسة في الشام ، قانصوه الغوري ، ليُحدث حادثاً في تطور الامة ، او ليوقف عاملاً من عوامل

الفساد والتفكك في الملك . بل كان هو من تلك العوامل نفسها وكان فوق ذلك هرماً خرفاً ، يعتقد بعلم الجفر ، ويتيقن ان الشر سيأتيه من رجل يبدأ اسمه بالسين . اما الاعجب من ذلك فهو ان يصح مثل هذا اليقين .

ها كم اسماً يبدأ بسينين اثنتين — السلطان سليم .

باشر هذا السلطان العثماني فتوحاته بقتل اربعين الفاً من الشيعة في الاناضول . ثم زحف الى الشام ، فجرد الغوري جيشاً للدفاع اكثره من المتذبذبين ، فانكسر في وقعة مرج دابق (٩٢٢ هـ . ١٥١٧ م .) وتوفي هناك .

وكان بين قواده الامير فخر الدين المعني الاول (جد المعنيين الذين تولوا الحكم بعدئذ في لبنان) الذي تردد وقومه في القتال قائلاً : دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . وكلمة المعني هذه تمثل حال اكثر من انضموا تحت لواء الغوري .

بعد وقعة مرج دابق استيقظت الفتنة في دمشق . ولكنها لم تدم غير بضعة ايام ، فأخلدت المدينة للسكينة بعد ذلك وفتحت ابوابها للسلطان العثماني .

وما لبث الاهالي ان أنّوا انين الضعيف المظلوم من

الضرائب الفادحة التي ضربها الفاتح على طبقات الناس كلها ولم يستثن حتى المومسات ·

وكان هذا السلطان ممن يحترمون الاولياء وارباب الكرامات ، ويستمدون من ارواحهم القدسية ، فامر بتعمير القبر المتداعي للعارف بالله محيي الدين بن عربي ، وانشأ في جواره جامعاً وزاوية ، ووقف عليهما وقفاً كبيراً ·

ثم زحف بجيشه الى مصر ففتحها ، وقتل مليكها طومنباي الذي بايعه المصريون بعد موت الغوري ، ونكّل بالشراكسة ·

اما اهل الشام فقد قاسوا كثيراً من جنود سليم المرابطين ، اذ كانوا يقطعون الاشجار ، و يرعون الازراع ، ويخرجون الناس من بيوتهم ليتمتعوا بها وبمن فيها من الحسان ·

وعندما عاد السلطان سليم بعد الفتح المصري ، بدل ان يؤدب جنود الحامية ، اذن لجنوده ايضاً ان يدخلوا البيوت ، فدخلوها فاتحين — والويل للحسان والولدان ·

سرعان ما صار الناس يترحمون على الشراكسة ، كما يترحمون على الاتراك اليوم · ليس في هذه البلاد السورية شيء جديد ·

كان السلطان سليم سفاحاً سكيراً لوّاطاً · لا يهمه بعد

فتوحاته وقتل الشراكسة ، غير لذته وسكره — الكلام لابن آياس — واقامته في المقياس بين الصبيان المرد · وكان يقتل وزراءه وغيرهم في ساعة غضب بدون سبب · فقد قتل سبعة من الوزراء ، وخنق سبعة عشر من اخوانه ، وغيرهم من اهل بيته حين تولى الملك · ومن امثال الاتراك السائرة في تلك الايام : من اراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ·

لذلك كان الوزراء يحملون صكوك وصاياهم في جيوبهم — او هي من نكات ذاك الزمان — ويهنأون كل مرة يخرجون من المجلس السلطاني سالمين · مجلس السلطان سليم ، من دخل اليه من الوزراء مفقود ، ومن خرج منه مولود ·

وهو فى اسفاره مثله في مجلسه · لاحظ الصدر الاعظم يونس باشا ، وهم في الطريق الى مصر ، ان في قطع الصحراء هلاك الجيش ، فضرب السلطان عنقه · واجترأ احد الوزراء ان يعترض على ابقاء اوقاف بعض الشراكسة بيدهم قائلا: سيستعينون بها علينا · فقال السلطان ، وهو يركب جواده ، اين الجلاد ؟ فضُرب عنق الوزير ، بينما كان صاحب الجلالة العظمى يضع رجله في الركاب ·

هذا هو مؤسس الدولة العثمانية في البلاد السورية . وقد عاد بعد فتحها الى الاستانة ومعه احمال لا تعد من المال والتحف وانواع الاسلحة والزينة مما كان في قلعة حلب وغيرها .

اما ادارة البلاد فلم يغير شيئاً في جزئياتها . ظل ارباب الاقطاعات مثلاً كما كانوا في دولة المماليك يضمنون الخراج ، ويحملون الكرباج ، فيدفعون للولاة مما يجمعون ، وهم في ما يجمعون لا يرحمون .

ولا هم يُرحمون . فاذا غضب الوالي على احدهم لتأخره عن الدفع مثلا يرسل عليه جيشاً من الانكشارية فيخرب قراه ، ويستصفي امواله ، ويأسر اهله ، ويسبي نساءه . فهل يلام المسكين اذا حمل الكرباج ؟

من اولئك الاقطاعيين ، في بداية العهد العثماني ، الامير فخر الدين المعني الاول حاكم الشوف ، والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب ، وبنو شهاب في وادي التيم ، وبنو حرفوش في بعلبك .

وكان من قواعد الدولة ان تولي امورها الكبرى لولاتها

وقضاتها والصغرى لابناء البلاد · ولكن الولاة [١] كانوا يبتاعون مناصبهم بالمزاد في دار السلطنة ، فيرهقون بعد ذلك ، ويسخرون ، ويغتصبون ، ويختلسون ، ليعوّضوا على انفسهم فلا يكونون في الاقل من الخاسرين ·

من امثال هذه التجارة بل هذا الاستعباد أن امر السلطان مراد مرة بان يكتب الى احمد باشا كوجك والي الشام ليدفع الى السلحدار باشا عشرين الف ليرة (المتبقية على الوالي في الحساب) ويبقى في منصبه · فادى كوجك المبلغ وهو يحمد الله ·

ولا تظنن ان السلطان الصالح المقتدر كان يستطيع ان يصلح امراً في هذه السلطنة القائمة على حدَّي السيف والدينار ، او يغير شيئاً كبيراً في احوال امة لم تتغذَّ في الالف سنة التي خلت بغير المظالم والحروب ·

وهل يا ترى في سلاطين آل عثمان سلطان صالح ؟ قد

---

(١) وغير الولاة · جاء في تقرير لاحد قناصل البندقية (الخطط : الجزء الثاني صفحة ٢٨٣) ان منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من ٨٠ الى ١٠٠ الف دوكا · ومنصب الدفتردار يباع من ٤٠ الى ٥٠ الف دوكا الخ (الدوكا نصف ليرة ذهباً)

تعرفت ايها القارىء الى السلطان سليم الاول ، وساعرفك الى بضعة من خلفائه الذين يبزّون في ما فطروا عليه حتى عبد الحميد الثاني ·

خلف السلطان سليم ابنه سليمان السلطان القانوني — القانوني بالقتل ، فقد كان كأبيه سفاحاً ، قتل ابنه الاكبر وحفيده وابنه بايزيد واولاده الخمسة · فلا عجب اذا كان يقتل كذلك وزيراً فاضلاً حال دون تنفيذ ذلك الامر «القانوني» بقتل اهل حلب اجمعين لان جماعة منهم ثاروا على الحكم العثماني ·

وهاكم سليم الثاني السلطان السكير الفاسق «له من اعمال الخلاعة ما يخجل منها» وقد خنق ارباب القصر ، عند وفاته ، اولاده الخمسة ليمحوا نسله ، فكان عملهم ذاك من باب التشذيب الذي يزيد الشجرة قوة ونمواً ·

وهاكم السلطان مراد الثالث الذي قتل اخوته الاربعة عندما تولى الملك ، وهو الذي حارب الموارنة في لبنان ليرضي طائفة الروم التي شكت اليه ظلاماتهم ، فوسّع ثلمة الشقاق السياسي الديني في الجبل ·

وهذا محمد الثالث الذي قتل يوم جلوسه على العرش تسعة

عشر اخاً له ، وعشر جوار حاملات من ابيه «وكان مع ذلك صالحاً عابداً ، ساعياً في اقامة الشعائر الدينية » ؟

وها كم مصطفى الاول السلطان الابله ،

يخلعه مراد الرابع السلطان السفاح الذي كان كأسلافه منهمكاً في شهواته ولذاته . ولكنه بزّهم جميعاً بالقتل . قيل انه قتل مئة الف انسان ، منهم خمسة وعشرون الفاً قتلهم بنفسه او شاهد قتلهم بأم عينه .

وهذا السلطان ابراهيم الفاجر المعتوه ، الذي هلك في الثامنة والعشرين من عمره شهيد الغواني والكؤوس . ان عهده لعهد الجواري والأغوات . قيل انه كان ينكح كل يوم بكراً ، ويقتل كل من يخالف له رأياً ، او يأبى ان يرسل اليه ابنةً حسناء يسمع بها .

وقد امر السلطان ابراهيم مرةً بقتل جميع المسيحيين في السلطنة ، فقال شيخ الاسلام معارضاً : « ان في قتلهم تنقص واردات الملك » فاقتنع وامتنع .

* * *

انا نقف رفقاً بالقارئ عند ابراهيم ، فنفسح مجالاً لبعض

الحوادث المتعلقة بهذه الديار البائسة المشئومة ٠

ما اهتم سلاطين آل عثمان في بلاد الشام لغير ما اهتم له الخلفاء العباسيون ، اي لضرب السكة والخطبة والخراج ٠ السكة باسمنا ، والخطبة والخراج لنا ، ولكم بعد ذلك ما تشاءون ٠ فهل يُستغرب الخروج على مثل هذا الحكم ؟ انما يُستغرب ان يقبله الناس سنة واحدة ، ناهيك بمئة سنة ٠

فما كاد ينتهي القرن السادس عشر حتى سُمعت في ذاك الليل الدامس اصوات المظلومين ، ولمعت سيوف الزعامات الوطنية ٠ نعم ، خرج الناس على الحكم العثماني ٠ ولكنهم كانوا مدحورين ، لانهم لم يكونوا متحدين متضامنين ٠

فقد حارب امراء الاقطاعات في لبنان بعضهم بعضاً ٠ وكانت في السنة الاخيرة من القرن السادس عشر وقعة نهر الكلب بين ابن معن العربي وابن سيفا الكردي ، فانكسر ابن سيفا وتشتتت جنوده ، واستولى فخر الدين المعني ، الذي كان في طليعة الخوارج ، على بلاد كسروان وبيروت ٠

وكان قد ثار في حلب علي باشا جان بولاذ التركماني ، فاستولى على قسم كبير من البلاد التي تليها ، وظل مستقلاً في حكمه

سنتين ، فجردت الدولة عليه جيشاً كبيراً زحف الى حلب ففتحها وباع الاتراك عيال جان بولاذ بيد الدلال ، فبيعت امه بثلاثين قرشاً . ثم مثلوا بالوف من المشاغبين وأتوا برؤوسهم الى الوزير .

وزحف هذا الجيش الى دمشق فقال الشاعر مؤرخاً :

دخل الشام جيوش كجمال قد رغوا

نهبوها في جمادى الخشوا أرخ طغوا

١٠١٦

وكان الامير فخر الدين المعني قد ازداد شوكة في استيلائه على كثير من القلاع وتحصينها ، فتعاون عليه ولاة دمشق وطرابلس وديار بكر وحلب ، فجندوا جيشاً كبيراً وحاصروه تسعة اشهر (١٠٢٠ هـ : ١٦٠٢ م) فضاق ذرعاً ، وهو لا يستطيع الدفاع ولا يريد التسليم ، فاختفى . ثم هرب في السنة التالية الى ايطالية تاركاً الحكم في لبنان وما اليه لابنه علي .

سكنت مراجل الفتن بعد كسرة جان بولاذ وسفر فخر الدين الى ايطالية . ولكنها عادت تغلي عندما رجع الامير بعد خمس سنوات وقد حالفه كوسموس الثاني كبير دوجات طسقانية ،

فاستولى المعني بمساعدة الاسطول الطسقاني على ساحل سورية ، واستأنف الحرب في سبيل الاستقلال ، فاستظهر والي دمشق ببني سيفا وبني حرفوش ، فحملوا على المعني (١٠٣٣ ه : ١٦٢٣م) فواقعوه في عين الجر (عنجر) وكانوا مغلوبين .

قويت كلمة فخر الدين وعظم شأنه في البلاد ، فارسلت عليه الدولة جيشاً من الاناضول تشفعه باسطول للاستيلاء على السواحل . فكسر الثائر المعني الجيش العثماني في وقعتين قرب صفد ، ثم انكسر في وادي التيم . وكان الاسطول بمساعدة بنو سيفا وغيرهم من اعداء فخر الدين قد استولى على الساحل فتشتت المعنيّون .

ومن عادات الامير المعني ان يختفي ، فاختفى بعد وقعة وادي التيم ، ثم سلم نفسه الى الوزير العثماني ، فأرسله الى الاستانة ، فسمع السلطان مراد الرابع عذره في محاربة اعدائه وعفا عنه . إلا انه ابقاه هناك اسيرا . ثم امر بقطع رأسه ، وبخنق ابنه الاكبر ، ووهب املاكه الى والي دمشق .

اما السبب في قتله بعد العفو عنه فهو غامض بعض الغموض بيد ان الحوادث التي تلت التسليم لا تدل على شيء من الحكمة

او من حسن النية في الدولة·

بعد اسر فخر الدين امَّرت على لبنان عدوه علي بن علم الدين اليمني ، فبادر هذا الى التنكيل بآل معن وبني تنوخ انصارهم ، وضبط ارزاقهم (انما تاريخنا سلسلة من النكبات والانتقامات) فقام من المعنيين الامير ملحم يثأر لاهله ، فوقعت الحرب بين القيسية واليمنية ، حرب العصبيات ، التي ارادت الدولة ان تثيرها · ثم سمعت شكاوي الناس دامعة العين · وبما انها لم تتمكن من القبض على الامير ملحم قتلت نسيبه الكبير الامير فخر الدين·

هو فخر الدين الكبير ، علم الوطنية الحقة ومشعالها الاوحد في تاريخنا الحديث ·

* * *

وكان في ذلك الزمان متولياً بدمشق درويش الشركسي الذي بكت من مظالمه الناس ·

ومن الشركسي هذا الى اسعد باشا العظم ثالث ولاة الشام من هذا البيت مئة سنة ونيف (١٦٣٨—١٧٤٤ م ·) من الويلات والنكبات ، أعد منها ولا اعددها ·

— وفي سنة ١٦٧٥ أُحرقت قرى البترون · ثم في السنة

التالية أحرقت بلاد جبيل وخلت من سكانها ٠

— وأمر والي طرابلس ابن حماده باحراق وادي علمات وقرى جبة المنيطرة ٠

— وفي سنة ١٦٧٩ (١٠٩٠ هـ) تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية ٠

— وبلغ ظلم والي دمشق حداً لا يطاق فأقفلت المدينة مرتين احتجاجاً عليه ٠

— واشتد ظلم بني حماده في جهة طرابلس ُفخربت القرى وُنكبت الناس ٠

— وكانت العصبيتان القيسية واليمنية لا تزالان في قيد الوجود ، بل في قيد الفتن والقرود ، فتُحارب اليمنية مع المتاولة والدروز ، وتُظاهر القيسية آل شهاب ٠

وكان الشيخ محمود ابو هرموش القيسي ، الخارج على القيسية ، متولياً على اليمنية ، حاملاً على خصومها ، فقام الامير حيدر الشهابي بجيش من القيسية فباغتوا بني علم الدين وابا هرموش وجنودهم ليلاً في عين داره ، واعملوا فيهم السيف ، فما سلم منهم غير القليل ٠ « وفي تلك الليلة قُتل خمسة امراء من بني

علم الدين ، وأمسك الشيخ محمود ابو هرموش ، وقطع الامير لسانه وأباهِم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم امرهم ، ونزح من كان يمنياً من البلاد » .

— وعينت الدولة متسلما على حماة (١١٠٦ ه : ١٦٨٥ م) اسمه اسعد بن مزيد ، فكانت مظالمه بمزيد ، كل يوم . فقام الحمويون واخرجوه من البلد قهراً ، فارسلت الدولة تؤدب الثائرين ، وتمثل بهم ، ولسان حالها يقول : اخضعوا لعمالي مهما كانت سيرتهم واتقوا بطشي ؟

— وفي هذه السنة (١١١٩ ه : ١٦٩٨ م) نهب الامير يوسف علم الدين مع عساكر الدولة بلدة غزير واحرقها . وفي السنة التالية غزا الامير حيدر الشهابي بلاد المتاولة ، فتجمعوا بالنبطية للدفاع ، فظفر بهم هناك ، وقتل منهم جمعاً غفيراً .

— « وسار والي دمشق الى عجلون ، وباغت بلاد نابلس ، وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، وسبى عسكره نحواً من سبعمئة امرأة » .

وكان الفقراء يهجرون البلاد هرباً من الظلم والتسخير ، فامست القرى المعمورة ، والقصبات المشهورة ، ركاماً من

الطلول الدوارس . اما اذا حاول الاغنياء الجلاء فالوالي يسوق عليهم جنوده ، فينهبونهم ويسبونهم . ولا غرو . فمن اين يجيء الخراج اذا هجر الاغنياء البلاد ؟

— وكان الوالي — والي حماة مثلاً — اذا غضب على رجل يضعه على الخازوق ، واذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع شيء من الكلس والقاها في نهر العاصي .

— وكان الامير المتسلم في جهات لبنان اذا غضب على رجل عاقبه بقطع اشجاره او بحرق قريته .

— « واصبح الناس يتظاهرون بالفقر فيكتمون اموالهم ويدفنونها في الارض لتنجو من المصادرات والسرقات » .

— وفي هذه السنة (١١٦٠ ه : ١٧٤٦ م) احرق اسعد باشا العظم قرى البقاع لان اهلها تأخروا عن دفع الاموال الاميرية .

وقد حدث في عهده فتنة بين الدالاتية والانكشارية فأعمل الباشا السيف في العصاة ، وسلب جنوده الدور واحرقوها .

قال المؤرخ : « وبقيت المشنقة اياماً لا تخلو من مصلوب ، وتركت جثث القتلى اياماً امام السرايـ تأكلها الكلاب ، وسلخوا رؤوس القتلى وجعلوها اكواماً ، وصارت المدافع تطلق

بكرة وعشية مدة شهرين ، وكثر العزف بالابواق واطلاق الاسهم النارية في الفضاء »

* * *

يسلخون رؤوس القتلى ويعيّدون اكراماً للباشا اسعد الذي انتصر على اعداء الدولة ...

انتِ سورية بلادي ،

وانتم ايها الطغاة العتاة اجدادي !

الفصل السادس عشر

الدرك الاقصى

ذكر صاحب «الخطط» ثلاثة اسباب لشقاء البلاد السورية في الدور العثماني ، وهي ظلم الولاة الذين كانوا يرتشون ليرشوا الوزراء ، وظلم الجنود الانكشارية الذين كانوا يصادرون ، وينهبون ويهتكون حرمات البيوت والاعراض ، وظلم صغار الامراء من اهل البلاد ، اي اصحاب الاقطاعات في الجبل واولي النفوذ في المدن .

وقد فاته ان يذكر السبب الاول والاهم اي الجهل — الجهل الذي كان مخيماً على طبقات الامة كلها .

خرجت اوروبة من العصور المظلمة قبل وصول الاتراك الفاتحين الى حواشيها الشرقية ، فظهر فيها العالم والمصلح والمخترع والمكتشف ، بينما رعايا هذه الدولة التترية ظلوا مقيدين بقيود الجهل ، ومسوقين بسوط الظلم الى كل ما فيه تحقيق اهواء حكامها وشهواتهم .

فلولا الجهل لما كان الظلم . لولا الجهل لما كان الشقاق

والتعصب والضعف والخنوع . ولولا الضعف والخنوع لما استطاعت تلك الدولة الاثيمة ان تحكم رعاياها المتعددة الاجناس والاديان باذناب الخيل ، بالاطواخ[١]

الى هذا الحد بلغ احتقار الدولة لمن يدفعون خراجها . والانكى من ذلك ان خراج بعض الالوية كان مخصصاً لبعض نساء القصر اي نساء السلطان الثمان الشرعيات[٢] (وقد خصص ربع ايالة الشام للمرأة السابعة) فكنّ يعينّ جباة من قبلهنّ يجبون حصتهن ، وكثيراً ما كانت تُجبى مرتين .

— وهوذا الطوخ جاء يبشر بقدوم الوزير . هاتوا المال ، والارزاق ، وتعالوا قدّموا فروض الطاعة .

---

(١) الطَوخ ذنب حصان معلق من اسفله في رأس عصا نحو ثلاثة اذرع وشعره مسدول عليه . فاذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقباله ويهيئون ما يلزم له ولحاشيته ودوابه . ويمشي امامه في السفر طوخان اثنان . — خطط ، الشام الجزء الثالث ، صفحة ٥ .

(٢) وكان تقرر جعل النساء الرسميات اربعة ثم ابلغت والدة السلطان (ابراهيم الخليع) عددهن الى ثمان نساء لان نسل بني عثمان كاد ينقرض . — الخطط ، الجزء الثاني صفحة ٢٦٧ .

اما الذي لا يتبرع بشيء لنفقات الضيافة — وكسب المضيفين — ولا يعفّر الوجه ليظهر اخلاصه للسدة الشاهانية العالية فهو من الخونة، هو خائن الملة والوطن، والويل ثم الويل له .

لنعد الى التاريخ ، وقد تركنا المخلصين للعرش والملة في الشام يسلخون رؤوس الخونة ويعيّدون .

وكان والي دمشق في اواخر القرن الثامن عشر يحارب الجزار ، والامير بشير يحارب الامير حيدر في لبنان ، وقائد الاسطول العثماني ينصح لمسلمي بيروت بذبح النصارى ، والانكشارية في حلب يذبّحون الاعيان والاشراف ، والجنود الدالاتية ينهبون قرى دمشق ويخربونها . والدولة راضية بهذه الفوضى ، بهذه الفتن ، بهذه النكبات البعيدة عنها بشرط ان يقدم اربابها للسدة الشاهانية ما عليهم من الطاعة والمال .

وهوذا القائد الافرنسي الشهير يجيء بعد كسرته بمصر (١٢١٣ هـ : ١٧٩٨ م .) ليختم في سورية عهد البلاء والفوضى [١] .

(١) وقال اللبنانيون نصارى الشرق : جاء مخلصنا . وبادروا اليه بالهدايا مرحبين متهللين (كما تهلل نصارى دمشق لقدوم هولاكو) ولكن القائد الافرنسي لم يكن مشغوفاً باللبنانيين ...
جننا بليلى وهي جُنت بغيرنا —

فيفشل عند اسوار عكا ، ويفتك بعسكره الطاعون ، فيأمر — وهو مثل كل الفاتحين — بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره كي لا يعوقوه في تقهقره ·

لم تتغير احوال البلاد بعد ارتحال نابوليون بونابرت · وكيف تتغير وفيها الجزار المشهور الذي حكم بامره وسيفه تسعاً وعشرين سنة ، فجعلها جنةً غناء جُن فيها عباد الله · جُنوا مما كانوا يسمعون ، جُنوا مما كانوا يرون ، جنوا مما كانوا يقاسون ، جنوا من جنون هذا الاجنبي البشناقي الذي جاءنا هارباً من مصر ، وكان فيها من جماعة الامير الحاكم علي بك ·

حكم احمد البشناقي الجزار تسعاً وعشرين سنة (١٧٧٥ — ١٨٠٤م ·) فبرّز بمظالمه على كل من تقدمه من الظالمين ، ولحقت جرائره بالمسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء · اني اكتفي بذكر مثلين منها :

استهلّ الجزار حكمه في عكا بأن ملأ السجون من جميع الناس ، الفقراء والاغنياء والعمال والعلماء واصحاب الحرف وكتبة الدواوين · وذلك ترويعاً للرعية · ثم امر ارهاباً لها بقتلهم اجمعين · — « وطرحت القتلى كالغنم خارج عكا ونادى المنادي :

تعالوا ادفنوا موتاكم ، وكل امرأة ترفع صوتها تقتل حالاً » .

كان الجزار يكره الناس جميعاً ، وكان كرهه الاشد للنساء .
حج هذا السفاح مرة فحدث في اثناء تغيبه حادث بين حريمه ومماليكه ، علم به عند رجوعه . فابعد المماليك ، نفاهم ، ثم أمر بأن تُشب النار في ساحة القصر . وجاء العبيد بالنساء نسائه ، الواحدة تلو الاخرى حتى بلغ عددهن ثلاثين . وكان العبيد يلقون بالواحدة منهن الى النار المتأججة ، فيتقدم الجزار ويطأ ظهرها ورقبتها بجزمته . كذلك فعل بالثلاثين اللواتي تحوّلن رماداً امام عينيه .

وكان ابن عثمان ، السلطان الجالس على العرش بالاستانة ، راضياً عن احمد البشناقي الجزار لانه كان يحسن جمع الخراج ، ويضيف اليه في بعض الاحايين شيئاً من ماله الخاص . والجزار هو القائل : « السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه اكثر » .

قبل ان نودع الجزار ، الغريب الاطوار ، المكوّن من طين ومن نار ، يجب ان نذكر ، فلا نظلمه ، ما ذكره صاحب « الخطط » اذ قال : « لا جرم ان التبعة في بعض اعماله تعود على عمّاله ورجاله ، واكثرهم من ابناء هذه البلاد الذين افسدتهم تلك

العصور وباءوا بالنقص والقصور [١] .

ويجب ان اذكر حسنة واحدة شاهدت أثرها عند ما زرت الجامع الكبير بعكا . هناك مكتبة فيها الكتب ، واكثرها خطية ، التي جمعها الجزار رضاء او قهراً كما كان يجمع الخراج . أليس من الغريب العجيب ان يكون هذا الرجل مولعاً بالكتب مبالغاً في حرزها ? — هـذا الكتاب وقف احمد باشا الجزار ، لا يباع ولا يعار ولا ينقل — . هي الكلمة المطبوعة على كل مجلد من تلك المكتبة [٢] .

ولم يكن الجزار منقطع النظير في ذاك الزمان . إلا انه كان اشهر الجزارين واغربهم اطواراً . فهذا بربر (البربري) القلموني

---

(١) أوَ لا تذكر ايها القارىء جزاراً آخر جلس بدمشق في العقد الثاني من هذا القرن السعيد ، وأمر بنصب المشانق فيها وفي بيروت ، وكان من عماله ورجاله نفر «من ابناء هذه البلاد «الكبار» الذين افسدتهم تلك العصور وباؤا بالنقص والقصور» ? !

(٢) «وقف وحبس وسبّل هـذا الجزء من (البخارى الشريف مثلاً) الحاج احمد باشا الجزار في جامعه المسمى بنور الاحمدية وقفاً صحيحاً شرعياً وشرع ان لا يباع ولا يرهن ولا يتغرب عن محله [فمن بدّله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه] سنة ١٢١٠ »

حاكم طرابلس ، احد اولئك الذين كانت تعوّل الدولة عليهم في إخضاع البلاد بأية طريقة كانت ، خصوصاً بالقاء الفتن واثارة الحروب بين امرائها .

وهوذا جزار آخر هو جبار زاده جلال الدين باشا والي حلب (١٢٢٧ هـ . — ١٨١١ م .) الذي كان يجمع الاموال بالسيف « ولا يكاد يمضي يوم الاّ ويقتل انساناً » .

وكان لهذا الجزار طريقة جديدة في التغريم والارهاب . قال المؤرخ : « ان ابن جبار كان يرسل من طرفه اثنين حاملَين بلطة يأتيان بمن تجب مصادرته ، فيزَج في السجن ، ويوضع في رقبته سلسلة لها شوك ، ثم يطالَب بما قرر عليه . فاذا لم يدفع في ثلاثة ايام يُخنَق ويرمى تجاه باب القلعة . وكلما خنقوا واحداً اطلقوا مدفعاً ، فكان يُعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع » .

وهوذا صاحب السعادة في السوق يتفقد شؤون الرعية . يمشي الهوينا محدقاً في الفضاء ، وقد مشت العساكر والبلطجية عن يمينه وعن شماله . ثم يدير بوجهه الى احد التجار ، فيبادر البلطجية اليه ويضربون عنقه ؟ ... هنيئاً لمن يرمقهم الباشا

بنظرة من نظراته . وكان كل مرة يتفقد شؤون الرعية يدير بوجهه ثلاث مرات فيقع التعطف العالي على ثلاثة رجال ولا ذنب لهم غير ما يريده من ارهاب الناس . لا اظن جزار عكا على غرابة اطواره وفظاعتها كان يحسن الاختراع مثل جزار حلب في التغريم والارهاب .

* * *

ومن الجزار البشناقي الى الدستور العثماني (١٩٠٨ م .) مئة سنة كاملة تمثل في الشطر الاول منها حرب الطوائف شرّ تمثيل ، وامتاز الشطر الثاني بامتيازات الطوائف في لبنان ، تلك الامتيازات التي كانت بنتائجها شرًّا من الحروب لانها عززت التعصب الديني عدوّ الانسانية الاكبر .

اما اهم الحوادث في الشطر الاول من القرن التاسع عشر فهي التي تبتدىء بابراهيم باشا المصري الذي جاء هذه البلاد صائلاً فاتحاً ، وتنتهي بمذابح السنة الستين . وهل من صلة بين الحادثتين ؟ اجيب : نعم ، بل اعتقد انه لولا مجيء ابراهيم المذكور لما كانت تلك الحوادث . وهاك البرهان :

كان ولا يزال ابناء هذا الجبل ينقادون كل الانقياد الى

رؤسائهم الدينيين والمدنيين . وقد اوسعتك علماً بهؤلاء الرؤساء لتتأكد انهم في كل حياتهم ، وكل ادوارهم ، لم يهتموا لغير مصالحهم الخاصة ، ولم يكونوا حتى في ذلك من الحكماء دائماً .

دخل ابراهيم باشا البلاد فاتحاً منتصراً (١٨٣٠ م .) وكان الامير بشير الشهابي الملقب بالكبير مع ابراهيم ، وكان ابراهيم والامير يحاربان الدولة العلية ، وكانت فرنسه سياسياً معهما . وفرنسة ، « امنا الحنون » تسمسر لنا دائماً بالطيبات — بالمذابح ! ساعدوا ابراهيم تنجوا من الترك ؟

نزل رجال لبنان الى الميدان . وكان الدروز يومذاك مع الدولة ، او بالحري كانوا اعداء الشهابيين . هي اليمنية والقيسية تبعثان ثانية وتستأنفان القتال . اما ظاهر الامر فهو ان الدروز كانوا مع الدولة على ابراهيم وانصاره . فسجلت الدولة هذه المكرمة للدروز — ولم تنسَ نصارى الجبل . هذي هي بذور السنة الستين وما تقدمها من المذابح .

وقد كان الامير بشير ينفذ اوامر ابراهيم في من خرجوا عليه ، فحمل على اهالي عكار والحصن وصافيتا حملات موفّقة . وغزا جبال النصيرية ففتحها وأحرق عسكره ثمانين قرية من

قراها · صرنا في القرن التاسع عشر ولا تزال فطرتنا فطرة الحثيين والفينيقيين والشركس والتراكمين ·

اما سيد الجميع ابراهيم فقد أرهق الناس بالضرائب ، وضرب على ايدي اصحاب الإقطاعات فقضى على سيادتهم ونفوذهم ، ووضع قانوناً للتجنيد الاجباري وشرع في تنفيذه ، فنفر منه جميع السوريين ، الخاصة منهم والعامة ·

وقد ابى دروز حوران تجنيد اولادهم فارسل عليهم الفاتح الحملة تلو الاخرى ، وفيها من ابناء لبنان (كما فعلت الدولة المنتدبة امس في مرجعيون وراشيا) فاشتد الغل بين الفريقين ·

وبعد ان رد الدروز تلك الحملات مدحورة صمم ابراهيم على تسميم الآبار بمحلول السليماني ليحملهم على هجر الديار ، فعلموا بذلك ونزحوا الى اقليم البلان ·

وكانت السياسة الاوروبية آخذة في التطور والتلون على عادتها ، فاتفقت انكلترة وفرنسة [1] على ابراهيم (كما اتفقنا امس

---

(١) عندما زحف ابراهيم باشا الى الاناضول بغاء الاستيلاء على الاستانة ، كانت الدولة البريطانية تسعى في الاستيلاء على عدن لتكون محطة بحرية في طريقها الى الهند · وكانت الجنود المصرية لا تزال محتلة

على الثوار السوريين) وضربت المدرعات البريطانية عكا ، فقام اذ ذاك الموارنة الذين كانوا مع الفاتح المصري يلبّون دعوة رؤسائهم الدينيين والمدنيين للعمل الذي فيه ارضاء «الام الحنون» وصون مصالح اصحاب الإقطاعات .

نعم ، انقلبت فرنسة على ابراهيم فانقلب الرؤساء المحترمون معها . وقام المشائخ والامراء ، النكديون واللمعيون وبعض الشهابيين ، يشقون عصا الطاعة على الحكومة المصرية ، لا دفاعاً

عسيراً وتهامه ، فحاولت الدولة مراراً ان تخرجها منهما ، وحاربت ابراهيم في سورية فكانت في الحالين مدحورة . عندئذٍ فكر السلطان مجيد في امر السلطنة تفكيراً حسناً ، فمنح شركة الهند الانكليزية الامتياز بعدن — ذاك الامتياز الذي كانت تطلبه حكومة بريطانية العظمى . فكتب عقيب ذلك (١٨٣٨ م) رئيس الوزارة يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا يقول انْ لا حقّ لمصر في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده منها . وكان كذلك . خرج المصريون من تهامه وعسير سنة ١٨٤٠ وقد قامت الحكومة البريطانية بشرط الامتياز الثاني فاستمالت فرنسة اليها في سياسة سورية ، وساعدت الدولة مساعدة حربية في ضربها عكا لاخراج ابراهيم من هذه البلاد . تالله ما تفعل عدن . لقمة في فم الاسد البريطاني تخلص عسيراً وتهامة وبلاد الشام من قبضة محمد علي وابنه ابراهيم وتعيدها كلها الى الدولة العثمانية !

عن حقوق الامة ، بل استرجاعاً لحقوقهم الاقطاعية التي كانت قد أبطلت وكادت تزول ٠

مساكين من ينقادون للاكليروس والامراء ٠ ظن اللبنانيون انهم يسترضون الدولة في نهوضهم مع من نهضوا ، ليخرجوا الفاتح المصري من البلاد ٠ ولكن انقلابهم لم يغنهم لدى الترك شيئاً ٠ قد كُتب ما كُتب ٠

بعد خروج ابراهيم باشا وسقوط الامارة الشهابية (١٨٤٢م) وبعد تعيين عمر باشا النمساوي حاكما على لبنان ، واجماع اللبنانيين على رفضه واصرارهم على ان يكون الحاكم وطنياً ، قسمت الدولة البلاد ، عملاً برأي حكومة النمسة ، الى قائمقاميتين ، جنوبية وشمالية ، يحكم الاولى امير ارسلاني ويحكم الثانية امير لمعي ٠ فوسعت شقة الخلاف بين الدروز والنصارى ، وطفقت تضرم بواسطة عمالها نيران الفتن الطائفية ، فدارت الدوائر لاول مرة على الاقليتين المسيحية والاسماعيلية (وهؤلاء الاسماعيليون او العلويون هم اخوان الموارنة في حب الاجانب وفي البلاء) ٠

عاد ارباب النفوذ والاقطاعات — هم الحكام الوطنيون ! — الى سالف مجدهم وشرورهم ، واستخدمت الدولة الدروز منهم لتنفيذ

مآربها بل للأخذ بثأرها ، فكانت تنزع السلاح ممن تروم تذبيحهم في هذا السبيل · اذن ليس بعجيب ان تتلو المذابح مثل هذه الحال · فقد كانت سنة ١٨٤٥ مقدمة لسنة الستين ، وكان انتصار الموارنة لابراهيم السبب الاول في المذابح التي حدثت بعد جلائه بخمس سنين ، فاعمل الدروز سيف الدولة برقابهم ، ودخل جنود الدولة الجبل مفحشين · — اتساعدون ابراهيم عدوّ الدولة وانتم من رعاياها ؟ !

روي عن قنصل انكلترة بيروت انه قال : « يوجد في سورية آفتان كبيرتان هما المسيحيون والدروز · فكلما ذبح احدهما الآخر استفادت الحكومة العثمانيه » ·

ولكني اعتقد واتيقن — وقد جئتك بالبرهان القاطع — انه لو لم يحارب الموارنة مع ابراهيم باشا لما كانت مذابح سنة ١٨٤٥ ولو لا هذه المذابح لما كانت « سنة الستين » · لله من تاريخ هو سلسلة من الانتقامات ؟

وها كم ساسة اوروبة يبادرون الى حماية نصارى الشرق ، وفي رأس الحماية تجارتهم (اي تجارة الاوروبيين) ومصالحهم السياسية والاقتصادية ·

فتبع المذابح في لبنان خمسون سنة من الامتيازات ، امتيازات القناصل لا اللبنانيين · والاجدر بتلك الحكومة ان تدعى « حكومات القناصل » قناصل الدول الحامية ، اولئك القناصل الذين كانوا يلعبون بأعيان لبنان و برؤسائه لعب الا كرة ، ويستمتعون في لبنان بما يقصر دونه جاه السفراء بالاستانة ، ويستثمرون ضغائن الطوائف ومطامع رؤسائها لمنفعتهم ومنفعة دولهم الخاصة ·

وتلت حكومة القناصل حكومة الدستور العثماني · فقام في لبنان من يدعون للاشتراك بالدستور ولأرسال مندوبين لبنانيين الى البرلمان بالاستانة · فابى اللبنانيون وكانوا على عادتهم تابعين عماوةً لرؤسائهم وزعمائهم الذين يؤثرون المصلحة الخاصة دائمًا على مصالح الوطن كلها ·

رفض لبنان الاشتراك بالدستور · رفض التنازل عن امتيازاته وقناصله (وقد تنازل عنها بعد بضع عشرة سنة لدولة فرنسه فأعطته بدلاً منها جمهورية نخمة ضرائبها لا تعد) ·

وذهب الدستور العثماني مع الذاهبين · وظل ساسة الترك الاتحاديون والائتلافيون يذكرون اللبنانيين بالخير ! فجاءت الحرب

العظمى ، وجاء الحصار ، بل جاء الحساب . كانت المجاعة وكان التجويع .

فلو كان لبنان دستوريًا في ذاك الحين هل كان خسر يا ترى اكثر من خسارته بعد زوال الدستور ؟

اني اسالك سؤالاً آخر : لو كان لبنان دستوريًا في ذاك الحين هل تظن ان جمالاً كان فعل باهله ما فعل ؟

اذا كان في التاريخ فائدة ما فهي في هذه الدروس التي يلقيها علينا . هي في الامثولة التي تعلمنا ان يجب ان نتعظ بمساوئ الماضي هي في الامثولة التي تعلمنا ان من الاثم ان نورث ابناءنا ما ورثناه من مساويء الماضي . هي في الامثولة التي تعلمنا ان لا يجب ان نظل مخدرين الى الابد باوهام التاريخ ، ولا يجب ان نسمم عقل الامة الى الابد بسمومه . يجب ان نعرف الحقيقة كلها ، فنستنير بها اذا كانت خيراً ، واذا ما كانت شراً ننبذها ونتقي امثالها .

وها قد وصلنا الى يومنا هذا ، وهو يوم من الايام التي سردنا تاريخها . وها ان البلاد بلادان سورية ولبنان . سورية المجاهدة ، ولبنان المتقاعد . سورية الدامية ، ولبنان المتفرج . سورية النازعة

الى الاستقلال ، ولبنان القانع بخيال من الحرية والاستقلال .
بل ترانا نعيد اغلاط اجدادنا ، فيعيد التاريخ نفسه في راشيا
وكوكبا ومرجعيون . وتستخدمنا دولة افرنجية لاغراضها كما
كانت تستخدمنا الدولة العثمانية .

فهل تصفو نية السوري فينسى الاجداد الذين يشيد على
الدوام بمفاخرهم ، وينسى الدول الاسلامية التي يتغنى على الدوام
بامجادها — وقد عرف من هذا التاريخ حقيقتها وحقيقتهم —
وينصرف بكل قواه ، وكل عقله ، وكل قلبه ، وكل ما لديه من
اسباب العمل الى ما فيه خيره وخير اخيه اللبناني على السواء قبل
كل شيء ؟

وهل ينبذ اللبناني رؤساءه وزعماءه الذين انقاد لهم في عهد
الدستور ، وفي ايام ابراهيم باشا — وفي هذا العهد ، عهد الانتداب
الحديث — ورأى بأم عينه نتيجة انقياده المفجعة ؟

اخواني ، ابناء هذه البلاد سهلها وجبلها وساحلها .

هل نظل مقيدين على الدوام بقيود الاجداد ، بل بقيود
الخوف والجهل ، والتعصب والاوهام ؟ هل نخدم على الداوم
مصلحة السادة الرؤساء ، المعممين والمقلنسين ، التي نظنها مصلحة

الوطن ؟

هل نخدم على الدوام مصلحة المنتدبين التي نعلم حق العلم انها تنافي مصلحة البلاد ؟

هل نرضى بخيال الجمهورية ونساعد في خنق كل امل من امالنا الوطنية القومية ؟

وهل نرضى بان نقول : اننا اخوانكم ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، ولا ننبذ من قلوبنا كل غلّ قديم وكل حقد ديني ذميم ؟

* * *

اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها !

اننا لا نزال في دياجي الليل ولا تزال المحجة بعيدة .

اننا لا نزال في ظلمات قُدت من ظلمات الماضي .

اننا لا نزال في اغلاط هي احدى اغلاط الماضي .

اننا لا نزال نئن من شرور هي بنات شرور الماضي .

اي لبنان بلدي ، اي سورية بلادي ، ان فيكما اليوم

رؤساء وزعماء هم من سلالة رؤساء وزعماء الماضي .

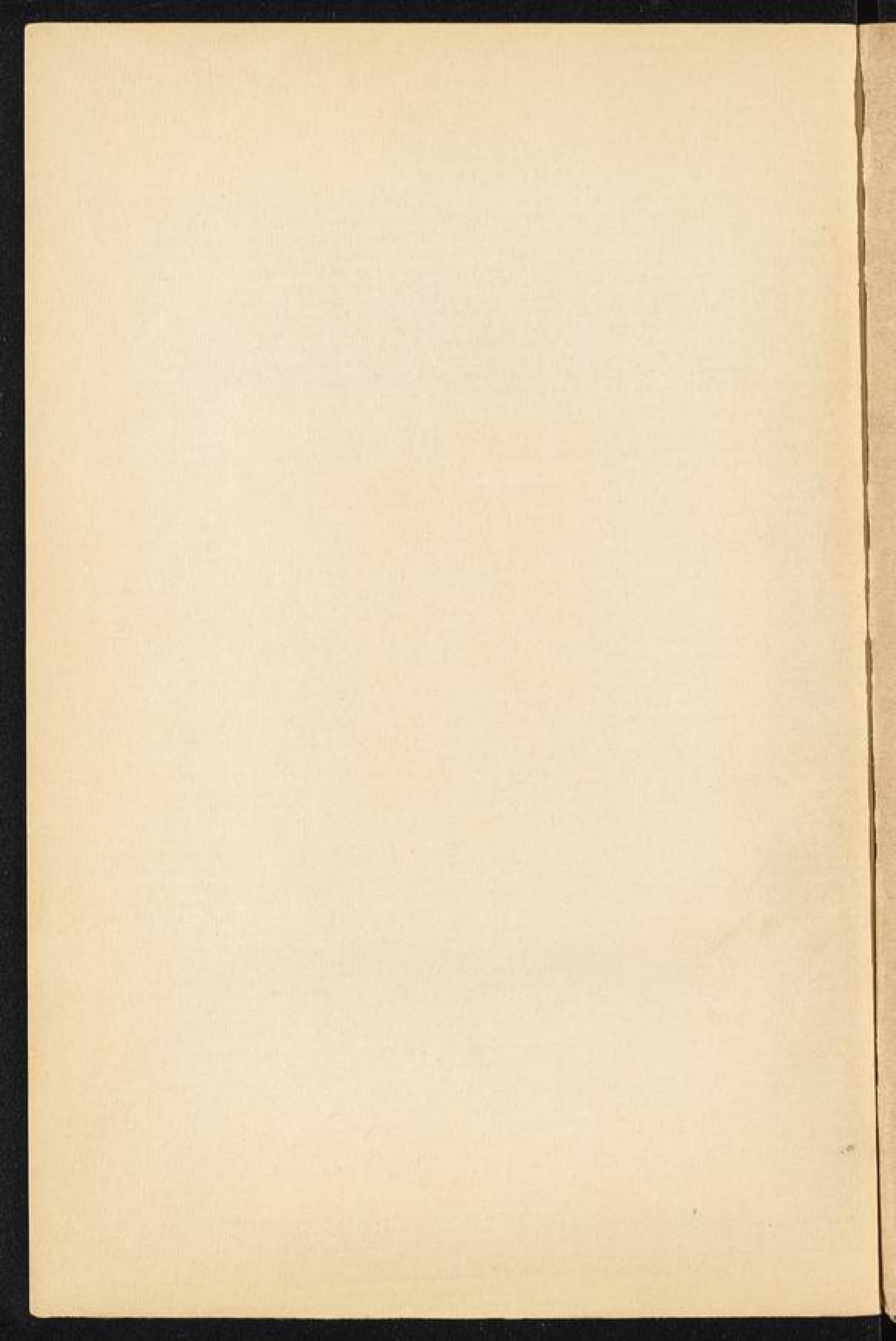
وان فيكما شعباً طائعاً قانعاً ، يائساً بائساً ، محوقلاً مستسلماً ، هو متحدر من اولئك الذين كانوا في الماضي يدفعون الخراج ، ويأكلون الكرباج .

* * *

« والطقس جميل
والهوا عليل
والليل طويل
نعمة كريم »[1]

---

(١) من اغنية لعمر الزعني شاعر الشعب والوطن




COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038556073

Cloth

893.718 R449

من مؤلفات الاستاذ الكبير امين الريحاني

الريحانيات

اربعة اجزاء وثمن الجزء ١٢٫٧ غرش ذهب عثماني

تاريخ نجد الحديث

ويليه سيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

مزين بالرسوم والخرائط

ثمنه ٣٥ غرشاً ذهباً

ملوك العرب

« الطبعة الثانية »

جزءان تحت الطبع

ثمن كل جزء ٣٠ غرشاً ذهباً

تطلب هذه الكتب من ادارة مجلة الكشاف ومن
يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية
في بيروت

ثمن هذا الكتاب ٥ غروش مصرية